مصر والدائرة العربية

ما هي نتيجة جمع صفر إلى أصفار

دكتور

سعيد اللاوندي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : مصر والدائرة العربية

المؤلف : د. سعيد اللاوندي

رقم الايداع / ٢٠١٦/٢٠٥١٠

الطبعة الأولى ٢٠١٦



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

إهـــداء

إلى أبناء عزبة المهندس

الذين يقدسون مصر «أرضاً» و«سماءً»

ويبنون «حضارة عربية» كبيرة

من المحيط إلى الخليج.

أهدى هذا الكتاب..

كلمة لابد منها

كنت أعرف شخصا يصر على أن يكتب كلمة «تيارات» بحرف الطاء «طيارات» وعندما ناقشته قال إن الكلمات يجب أن تكتب بحسب النطق!! ولست أدرى- في هذه الحالة- كيف نميز بين الطيارات «التي تطير» والتيارات الفكرية أو السياسية.. اللهم إلا إذا كان صاحبنا «إياه» يريد أن يجعل كل شيء في حياتنا «يطير» حتى الثقافة والحضارة والدين!!

والعجيب والغريب أن هذا الشخص «إياه» خرج علينا بنظريات في لغة الضاد جلبت له اللعنات حتى يوم يبعثه الله!!

المهم أني تذكرت هذه الترهات اللغوية المضحكة عندما وقعت عيني على بعض الفضائيات التي تقتل اللغة العربية ألف مرة كل يوم، فامتهن «مذيعوها» حرمتها «عيانا بيانا» باسم الحداثة والمدنية وال «نيولوك».

واستوقفتني فضائية تجعل من الخصام مع اللغة العربية مبدأ وعقيدة. فالعامية هي لغة الحوار؛ والسرد، والإشارات، ولست أدرى إلي أين ستصل بنا هذه الفضائية بخطتها الرامية إلي إهمال «لغة الضاد».

هل هي الانعزالية الجديدة التي حدثنا عن أنماطها القديمة الناقد الكبير رجاء النقاش في كتابه الشهير «الانعزاليون في مصر» أم تراهم يتصورون أن تأكيد «المواطنة» لا يأتي إلا بسحق اللغة العربية، وإعلاء شأن اللهجة المصرية «أو العامية المصرية».

ألا رحم الله الراحل الكبير لويس عوض الذي تحمس في واحدة من مراحل حياته الفكرية للعامية المصرية فكتب بها كتابا واحدا هو «مذكرات طالب بعثة» ليكتشف- بعد ذلك- أنه «أتى فحشا كبيرا» فأقلع عن الفكرة وعاد ليصوغ فكرة الرائد في لغة الضاد.. ولست أبرئ كل من يتحمس لفكرة الكتابة بالعامية المصرية من مؤامرة سحق وامتهان اللغة العربية، لأن القاعدة الأولى التي يعرفها الجميع أن اللغة- أي لغة ليست إلا وعاء لفكر وأدب وحضارة وبالتالي فهدم الوعاء هو- في الوقت ذاته- هدم لما في الوعاء.. وهذا معناه ببساطة إحداث قطيعة بين تراثنا العربي بكل ما يعنيه من تاريخ وحضارة.

واللافت للنظر أننا لا نتعلم من الرواد الذين سبقونا.. فالدكتور محمد حسين هيكل «صاحب قصة زينب» اقتنع- لمرحلة قصيرة من حياته الفكرية- بضرورة إحياء التراث الفرعوني وضخ الدماء في عروقه لكي يحيا ويعيش وينبض بالحياة.. ثم اكتشف بعد ذلك- أنه يحرث في البحر- فالتراث الإسلامي- للأمة المصرية- هو الذي شكل هويتها وليس «خوفو وخفرع ومنقرع».

أريد أن أقول أن ثمة مؤامرة تحاك وتنفذ ضد اللغة العربية.. تجلياتها أن تظهر على لسان كاتب دعى «جاهل» أو على شاشة فضائية تصر على الحديث بالعامية.. وهنا تحضرني كلمة لعميد الأدب العربي د. طه حسين ينتصر فيها للغة العربية «اللغة العربية هي لغتنا ولنا أن نجدد فيها لكن ليس بابتذالها أو تجاهلها لحساب العامية»

الأمر جد خطير فهل برعوي الذين في قلوبهم مرض؟!

عروبة مصر

في كل مرة أسمع فيها حديثا عن (فرعونية مصر وعروبتها) تقفز إلي ذهني مباشرة الحكاية التي رواها الدكتور محمد حسين هيكل (صاحب قصة زينب) وذكر فيها أنه تحمس في بواكير حياته العلمية والمهنية إلي فرعونية مصر، وشرع يكتب عن أحمس ورمسيس، ونفرتيتي... إلا أنه أكتشف بعد فترة أنه أشبه بمن ينفخ في قربة مقطوعة! فلا كلماته أحدثت صدى ولا أفكاره حركت ساكنا وبعد تفكير طويل أدرك هذا الرجل- الذي هو من هو في دنيا الفكر والثقافة المصرية- أن «فرعونية» مصر ساكنة سكون الموت، و أن قصارى أمرها أن تكون مجرد صفحة في كتاب مصر (القديم والحديث والمعاصر..) وهي- بالقطع- مصدر اعتزاز، لكنة اعتزاز بالماضي الذي كان، والذي لم يعد له وجود في حاضر مصر..

واعترف محمد حسين هيكل أنه لم يشعر بحيوية مصر، (ومجدها الحقيقي، ودورها الديناميكي الذي لا يعرف الملل أو الكلل) إلا بعد أن كتب في صفحاتها الإسلامية والعربية التي تشغل معظم صفحات الكتاب..

ويذكر فتحي رضوان في كتابه «عصر ورجال» أن كتاب «من وحي محمد» الذي سجل فيه قلم هيكل، خواطره، وروحانيته عندما زار قبر

الرسول ﷺ وحج إلي الديار الحجائزية.. كانت خاتمة خير عليه والكتاب الآخرين.. ويشرح فتحي رضوان قائلاً: إن كتاب «من وحي محمد» حقق أرباحا خيالية في المبيعات فأعرب ذلك كاتبا (في وزن عباس العقاد) لكي يكتب في الإسلاميات. ولذلك توالت مؤلفاته حتى سلسلة العبقريات (عبقرية محمد، عبقرية أبو بكر، عبقرية عمر...الخ) كما توالت ولا تزال إلي اليوم طبعات هذه السلسلة..

ومعنى ذلك أن مصر العربية والإسلامية تحتل (كل المساحة) في عقول وقلوب ساكنيها.. وهي متدفقة بالحياة والحيوية وليست ساكنة ميتة كصفحة الفرعونية.. كما تقفز إلي ذهني أيضا- بهذه المناسبة- محاولات البعض منذ عشرات السنين إعلاء شأن الفرعونية في سعي دؤوب لطمس معالم عروبة مصر، فكتب لويس عوض ممجدا (اللهجة المصرية) التي كان يراها لسان مصر (وليس اللغة العربية الفصحى).. واستمر مخلصا لهذه الدعوة رغم فشل كتابه (مذكرات طالب بعثة) التي أصر على كتابتها باللغة العامية المصرية.. ولذلك عندما كتب- لاحقا- كتابه الشهير (في فقه اللغة العربية) والذي حصل به على جائزة الدولة التقديرية، تعالت الأصوات تطالب وزير الثقافة حينئذ بسحب هذه الجائزة منه لأنه من أعدى أعداء اللغة العربية الفصحى، وكتاباته عن العامية المصرية هي أكبر مثال على ذلك..

وفي هذا السياق لابد أن نذكر إن محاولات هدم صورة مصر العربية لم تتوقف، ولأن الجميع يعلمون أن اللغة العربية هي عماد هذه العروبة، تعرضت لغة الضاد ولا تزال إلي ضربات موجعة.. فمثلما كانت هناك الدعوة لهدم الأبجدية العربية، والاستعاضة عنها بأبجدية لاتينية (والتي تحمس لها نفر من الرعيل الأول وعلى رأسهم عبد العزيز فهمي باشا).. ظهرت في أيامنا دعوة أخرى تطالب بحذف المثنى ونون النسوة، وكتابة لغة القرآن بحسب منطوقها.. وهي مؤامرة كشف عتاة اللغة أبعادها خصوصا عندما تبين أن من يهاجمون عالم النحو (سيبوبه) هم أبعد ما

يكونون عن........ اللغة العربية إبل هم فقراء في لغة الضاد: مفردات، ودلالات، ومعان..

وأعترف أن القياس الذي استند إليه أحد المفكرين المصريين المعاصرين في تفنيد مزاعم هذه الدعوات المشبوهة، وهو قياس (قاطع مانع شامل) كما تقول القاعدة المنطقية.. يفرق بين أمرين: الأول: العروبة كهوية جامعة تضم الناطقين باللغة، وتربطهم بمنظومة من القيم والرموز والمعاني ويجمعهم تاريخ طويل من الانتماء لتطور الحضارة العربية والإسلامية والثاني: العروبة بمعناها السياسي والذي يشير إلي تيار فكري ومجموعة من الأحزاب والتيارات السياسية التي شهدتها المنطقة خلال نصف قرن من الزمان.. وإذا لم يعد المضمون السياسي للعروبة موجودا على جدول أعمال الغالبية العظمى من الدول والأحزاب العربية، فمن غير الصحيح أن الشعور بالتواصل والانتماء الثقافي لم يعد موجودا..

الشيء الثاني والذي يفرض نفسه بقوة في هذا الإطار ويجعلنا نتشكك ليل نهار في كل من يتحمس لدعوات الانعزالية فهو أن الذي يطرب لفكرة هدم العروبة هو الاستعمار الحديث الذي يرفع شعار العولمة فوق رؤوس الجميع!!

فكلنا يعرف أن مشاريع الشرق الأوسط الكبير، أو الموسع أو الجديد، هو الذي يقف وراء استبعاد كلمة العربية من اسم دولة العراق كما أن دستور العراق يخلو عن عمد من انتماءاتها العربية والإسلامية.. ومن الأشياء ذات الدلالة في هذا السياق أن أكثر الدول العربية التصاقا بالغرب، وانسحاقا أمام المطامع الأمريكية هي الأكثر هجوما على جامعة الدول العربية، باعتبارها (الرمز) الذي تسير نحو المنظومة العربية الجامعة...

الغريب أنه يتعين علينا (نحن أنصار فكرة عروبة مصر) ألا نربط بين الخط الانعزالي الذي ينتهجه نفر من المصريين- وبين الخط الانعزالي الذي ترجح كفته أمريكا ودول الغرب..

مع أن التشابه واضح وجلي ويكاد يفقأ العيون.. ما أريد أن أشير إليه في هذا الصدد هو ما يلي:

أن الدعوة الفرعونية مصر تتزامن مع حديث متوتر عن فقدان مصر لمكانتها الرائدة في الثقافة والأدب والفكر منذ خرجت جامعات مصر من تصنيفات الجودة العالمية، وشهاداتها العلمية أصبحت شيكا بدون رصيد كما تراجع الكتاب الأدبي والثقافي والسياسي..

وبدلا من أن نعكف على البحث في أسباب هذا التراجع أخذنا الأسهل ورفعنا شعار: نحن مصريون لا عرباً! وهي- كما يعلم الجميع- وسيلة الفقير، والضعيف في الدفاع عن نفسه..

إن ما يدور رحاه اليوم بشأن تقزيم مصر وحشرها في قمقم الفرعونية هو ثمار فجه لزرع غرسه أعداء مصر منذ اعتلاه أحدهم مقعد السلطة.. فضاعوا، وأضاعوا.. لكن ستبقى مصر العربية نجما يسطع في سماء المنطقة والعالم.

السياسة لا تعرف الرومانسيات!!

أين نحن- في مصر والعالم- مما يحدث أو يمكن أن يحدث في فرنسا من تغييرات وتعديلات في المنحي والتوجه..؟ إذ لا يعقل أن نظل في الشرق الأوسط في موقع (المراقب) الذي لا يهمه ما يحدث مع أن واقع الحال يؤكد أننا معنيون ربما أكثر من غيرنا بما يحدث في هذه الدولة التي نتشدق كثيرا بعلاقة الصداقة التي تربطنا بها..

فضلا عن صلات أخري ثقافية وأور ومتوسطية واقتصادية تشدها إلينا، ونشدها إلينا..؟

أطرح هذا الأمر علي الملأ لأنني لاحظت- كما لاحظ كثيرون غيري- أننا يطيب لنا اختزال الدول في أشخاص حكامها.. وهذه خطيئة كبري يجب ألا نغفرها لأنفسنا ويتحتم علينا أن نبرأ منها اليوم قبل الغد.. ففرنسا لم تكن في يوم من الأيام الجنرال شارل ديجول، ولا شيخ الاشتراكيين فرنسوا ميتران.. وبالتالي فلن تكون- بالضرورة- جاك شيراك أو ساركوزي، لأن الدول أبقي من الأفراد.. ودوائر التماس التي تربطها بغيرها من الدول هي العناصر المستدامة.. ومن ثم فالحكام مهما ارتفع شأنهم ليسوا أكثر من مجرد محطات..

أقول ذلك لكي أجمع قواي تمهيدا لتوجيه اتهام إلي السياسة الخارجية العربية التي اعتادت أن تختزل علاقاتها بالدول الأوروبية وغير الأوروبية

في حدود أشخاصها وذوي السلطة والنفوذ فيها ففرنسا هي شيراك وكفـي! وهـذا غير صحيح، لأن ساركوزي- مثلا- اعتلي مقعد قصر الإليزيه.. وعندئـذ سننسـي شيراك لنتجه (بكليتنا) نحو ساركوزي.. لنخصـه بالاهتمـام والحفـاوة وهـذا مـا حدث بالفعل.. وأحسب أن الرجل سوف يندهش لذلك اندهاشا كبيرا لأنـه ظـل (مجهولا) أو (مهمشا) في عيون السياسة الخارجية العربية والقائمين عليها طـوال سنوات حكم شيراك.. ولعله سوف يأخذ انطباعا بأننا أنـاس لا نعـرف مـن فنـون السياسة وأدوات الحكم إلا أقل القليل..

ولهذا، وكي لا نعطي هذا الانطباع السيئ عنا في المنطقة العربية كـان الأجـدر أن نهتم بجانب اهتمامنا بالرئيس شيراك ـ بعدد من رموز الحكم والمعارضة، ليس فقط لأن السياسة لا تعرف صداقات دائمة ولا عداوات دائمة وإنما مصالح دائمة، ولكن أيضا لأن الحنكة السياسية تفرض الانفتاح علي جميع التوجهات والتيارات.. فالتجربة تثبت دائما أن من كانوا في الظل أصبحوا- ذات يوم- في بؤرة الضوء..

ولسـت أري- في هـذا السـياق- أن تنفـتح السياسـة الخارجيـة العربيـة عـلي ساركوزي، وروايال، وبايرو وجميع المرشحين الرئاسيين السابقين.. ولا أحسـب أن الرئيس شيراك سوف يموت لو فعلنا ذلك.. فمنطق السياسـة كالسـيف هكـذا يقول فلاسفة الحكم قديما وحديثا..

..وفي هذا الإطار لابد أن أسجل تقديري للقاءات التي جمعت بين كبار رجـال الحكم في مصر وبين زعيم الأغلبية في الكونجرس الأمريكي والوفد المرافـق لـه، لأن ذلك يعكس القناعة السياسية التي أتحدث عنها وهي أن أمريكا ليسـت فقـط الرئيس السابق جورج دبليو بوش أو الرئيس الحالي باراك أوبامـا.. ولقـد حققـت مصر (سبقا)- من وجهة نظري في هذا السياق- في الوقت نفسه الذي عكسته زيارة السيدة نانسي بيلوسي الرئيس السابق لمجلس النواب الأمريكـي التـي كشـفت- ضـمن مـا كشـفت- عـن أن أمريكـا ليسـت فقـط الجمهـوريين ولكنهـا أيضـا

الديمقراطيون.. ولذلك يخطئ كثيرا من يختزل أمريكا في شخص بوش الابن، كما كان خطأ كبيرا أن تختزل أمريكا في شخص أوباما أو بوش الأب أو كلينتون..

..هذه الواقعية السياسية هي ما نحتاجه في منطقتنا العربية وتعني- ضمن ما تعني- أن نكف عن تناول أمور السياسة من منظور الرومانسية الحالمة، فالرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك لم يكن في يوم من الأيام صديقا للعرب.. لكننا- علي عكس ذلك- درجنا علي القول إنه أصدق الأصدقاء.. ولست أدري كيف يستقيم ذلك بينما لم نلمس منه (حيادا) علي الأقل حتى لا نقول انحيازا.. وتحضرني الآن تصريحاته التي تحدث فيها عن تخوفه من حدوث سباق نووي في الشرق الأوسط إذا امتلكت إيران يوما سلاحا نوويا فقال شيراك الرئيس الفرنسي السابق- حرفيا- إن ذلك سوف يجعل مصر والسعودية- مثلا- تسعيان إلي امتلاك السلاح النووي..

وليس خافيا أن هذا النوع من التفكير لا يقول به (صديق) وإنما رجل سياسة.. ولولا اعتذار شيراك بعد يوم من صدور هذه التصريحات لحدثت بلبلة وازداد الماء تعكيرا.. وربما لهذا السبب أجدني لا أرتاح كثيرا لإطلاق صفة (صديق العرب) علي الرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك سيما أن مواقف شيراكية كثيرة تؤكد أن الرجل لم يكن يعنيه أمر هذه الصداقة بقدر ما كان يخضع ـ شأنه في ذلك شأن كثير من رجال الحكم ـ لمقتضيات السياسة.

فمثلا عندما أراد جاك شيراك أن يقطع الطريق علي خصمه في فترة من الفترات جان ماري لوبن في واحد من الانتخابات الرئاسية استلبه خطابه السياسي الذي يهاجم فيه العرب والأجانب، وأطلق تصريحات نارية وصف فيها العرب والمسلمين الذين يعيشون في فرنسا بأوصاف غير لائقة فقال ذات مرة: تؤذيني كثيرا الرائحة التي تفوح من مطابخهم، وقال أيضا: إنهم قوم لا يستطيعون العيش إلا في أجواء لا تخلو من صخب وضجيج. واتهمهم بأنهم يتناسلون بأعداد كبيرة

لكي يستأثروا بالمساعدات الاجتماعية!

..وأشهد أن جاك شيراك لم يكترث بما أحدثته هذه التصريحات (من استفزاز) بين أبناء الجالية العربية في فرنسا، لأنه كان يناور سياسيا ويريد أن يخطف الناخب الفرنسي الذي تستميله مثل هذه التصريحات التي كانت تصدر- بشكل دائم- عن اليمين المتطرف (وهو هنا لم يراع ما تفرضه الصداقة المزعومة مع العرب من واجبات وإنما خضع لمقتضيات السياسة، والسباق الرئاسي)..!

..ولعل المواقف الأخرى المنسوبة إليه تؤكد- ألف مرة- أن الرجل لم يكن يوما (هذا الصديق الوفي) الذي نتحدث عنه في الأوساط السياسية العربية.. فها هو الرئيس الأمريكي السابق جورج دبليو بوش يفشي سرا في حديث له نشرته صحيفة لوفيجارو الفرنسية في صيف عام ٢٠٠٥ فيذكر أن القرار رقم (٥٥٩) الذي صدر عن مجلس الأمن الخاص بخروج القوات السورية من لبنان هو في الأصل اقتراح فرنسي، ولقد حدثه في شأنه الرئيس السابق شيراك عبر الهاتف.. وإذا علمنا أن لبنان تضاعفت معاناته، وبات يقف علي فوهة بركان بسبب هذا القرار وتداعياته، لأدركنا علي الفور أن شيراك الذي فكر في استصدار هذا القرار، لم يكن شيراك الصديق وإنما شيراك السياسي.. والفارق واضح بين المعنيين!

المسكوت عنه في الديمقراطيات العربية

في الديمقراطيات الحديثة تتقلص كثيراً «مساحة المعتم» ليصبح كل شيء (أو معظمه) تحت الأضواء الكاشفة بحيث يراه الناس، ويفهمون أسبابه، ويُحاطون علماً بكل أبعاده..

واختفت- تبعا لذلك- الأسباب الأمنية التي لطالت كانت ستاراً يحجب ممارسات غير منطقية، وضد المصلحة العامة، ولا إنسانية (في بعض الأحيان)..

وهذه الديمقراطيات أعطت للمواطن العادي الحق في أن يعرف، كاسراً جميع التابوهات (فهو الدولة، والدولة هو..) وبالتالي فلا شيء غامض لأن مصلحته هي الهدف (والمتبقي) من كل سياسة أو قرار..

وبقدر غياب (مساحة المُعتم) تكون هناك شفافية بحيث تكون السياسات واضحة، ودوافع القرارات مفهومة.. أقول ذلك وفي ذهني موقف بما شبه فرنسا قبل عدة أشهر وكان بطله الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي..

فكلنا يذكر أن الدنيا في فرنسا (قامت ولم تقعد) اعتراضاً على زيارة العقيد مُعمر القذافي قائد الثورة الليبية لفرنسا، واتسعت دوائر الاعتراض فشملت الأحزاب والنقابات، والاتحادات، ولم يكن المواطن العادي

بعيدا عن هذه الدوائر. وغرقت باريس بالأسئلة والاستنكارات إذ كيف تطأ قدم ممول الإرهاب- هكذا قالوا- ويقصدون القذافي أرض باريس، وكيف له أن يُستقبل في قصر الإليزية ويداه ملطخة بدماء ضحايا طائرة لوكيربي..

ووصلت الاعتراضات عنان السماء، وصمّت الآذان.. وبدأ الأمر (صراعا) أو ما يشبه ذلك بين الشعب الفرنسي ورئيسه الجديد نيكولا ساركوزي.. خصوصاً بعد أن تبنت الصحف الكبرى القضية، واعتبرتها حق ديمقراطي لا يجب التنازل عنه: فالمواطن الفرنسي يريد أن يعرف مُبررات هذه الزيارة.. ولم يعد يقبل ما كان يُقال دوماً- في مثل هذه الحالات- وهو أن الأمر يدخل في دائرة الأسرار الوطنية، والأمن القومي، ومقتضيات المصلحة العليا..

فالشفافية باتت واجبة ومطلوبة.. والمواطن- هنا- لا يطلب سوى حقه في أن يعرف.. هذا الحق الذي تكفله الدساتير الديمقراطية، وتلزم به القادة والرؤساء وأولي الأمر، ولا تقبل في الإخلال به عذراً أو تبريرا..

وأمام صخب المعارضة في فرنسا أضطر الرئيس نيكولا ساركوزي أن يترك ضيفه في قصر الإليزيه ويعقد مؤتمرا صحفيا بشكل مفاجئ، لم ينكر فيه حق الشعب الفرنسي في أن يعرف دوافع وأسباب دعوته للعقيد القذافي لزيارة فرنسا.. ولم يتذرع بالأمن القومي الفرنسي الذي لا يجب أن يفشِ أسراره، دائما ليفصح- علانية- عن هذه الأسباب.. فذكر مثلاً أن قائد الثورة الليبية قد اعترف بخطئه، وأعلن توبته عن دعم الإرهاب والدليل على ذلك أنه دفع تعويضات ضخمة لضحايا لوكيربي بلغت نحو عشرة ملايين دولار لكل ضحية.. وكان يتعين- والكلام ما زال للرئيس الفرنسي- أن نساعده في العودة إلي المجتمع الدولي لإدماجه- مجدداً- داخل دوائر الشرعية الدولية..

الشيء الثاني الذي ذكره ساركوزي هو أنه سيعقد صفقات مع ليبيا تصل إلي ١٠ مليارات دولار سوف تساعد كثيرا في تخفيض البطالة في فرنسا، عبر المشاريع

الكبيرة التي سُتقام، والتبادلات التجارية التي ستجرى.. وكلها ستصب- في النهاية- في عروق الاقتصاد الفرنسي الذي سيقوي ويشتد عودة بحيث يصبح قادراً على مواجهة الاهتزازات..

وكلنا تابعنا أن ساركوزي لم يخف شيئاً، وتحدث بلغة المصالح، فهدأت ثورة الغضب التي ملأت نفوس الكثيرين وساهمت في إشعالها أحزاب المعارضة الاشتراكية.

أقول ثانية إن الرئيس ساركوزي لم يغضب دائما تحلى بالصبر، ورفع شعار الشفافية، فانسحبت الألسن داخل الأفواه، وسارت الزيارة كما كان مقرراً لها أن تسير- دون مضايقات أو إزعاجات..

إن شيئاً كهذا تحتاج إليه في بلادنا خصوصاً بعد أن لاحظنا أن (مساحة المُعتم أو المُظلم) قد اتسعت حتى كادت تمس كل الدوائر (الصغيرة والكبيرة، والمُهمة والأقل أهمية..) ولست أرى في ذلك تخوينا لشخص أو لجهة، ولا عدم ثقة أو مصداقية في مصدر أو ناحية بقدر ما أراه ترجمة فعلية لممارسة ديمقراطية سليمة.. فالديمقراطية لها وجه واحد وليس ألف وجه.. وحق المواطن في أن يعرف هو حق مطلق وليس نسبيا.. واختلاف الرؤى وارد، وليس كفراً، فمن حق السلطة- أي سلطة- أن تقرر، لكن من حق المواطن أن يعرف أسباب ودوافع هذا القرار..

أقول ذلك وفي ذهني موقفان، الأول هو الموقف المعدي من إيران.. فض مرات كثيرة تملأ قصائد الغزل المتبادل كل الساحات، وتتابع أن مسئولين مصريين زاروا طهران وأجروا مباحثات.. وأن وزير الخارجية المعدي التقى نظيره الإيراني وتبادلا المصافحة والابتسام.. ونسمع مصادر- من هنا وهناك- أن عودة العلاقات وشيكه (باتت قاب قوسين أو أدنى) ولم يبق سوى تسمية السفير المصري هناك..

ثمة فجأة (نسمع) أن مصر قلبت ظهر المجن لإيران، ونقرأ مانشيتات صحفية تكيل الاتهامات وتتحدث عن محاور وتستعد الجميع ضد إيران..

وهنا أتساءل في براءة أليس من حقنا أن نعرف الأسباب في الحالين الصعود والغزل، والهبوط والاتهام! مع يقيننا بأن السياسة هي لغة المصلحة، وثقتنا في رؤية القيادة السياسية للصالح.. لكن هذا لا يمنع ممارسة حقنا في أن تعرف..

الموقف الثاني الذي امتدت فيه مساحة المُعتم هو الموقف من قمة دمشق.. فهبوط تمثيل مصر في القمة هو أمر وارد، لكن عندما يلاحظ المواطن المصري أن الدول التي خفضت تمثيلها هي الدول التي يطلق عليها محور الاعتدال ذي الصلة القوية بأمريكا.. وعندما يسمع أن هذا المحور كان يحرص على إفشال قمة دمشق..

وفي ذات الوقت يعرف المواطن المصري أن مصر لا يمكن أن يُملي عليها قرار، وأنها لا يمكن أن تُساهم في إفشال قمة كانت هي أول دولة تناضل من أجل تكريس دورية انعقادها..

هذه الرؤية- والرؤية المعتادة- تؤدي إلي أحداث حالة من البلبلة في رأس المواطن المصري..

وهنا أتساءل: أليس من حقه أن يعرف الصحيح من الزائف والحق من الباطل..؟

لماذا لا نقلد فرنسا التي قطعت قول كل خطيب عندما أذاعت- في مؤتمر صحفي لساركوزي- كل البيانات والمعلومات.. أحسب أننا لو فعلنا ذلك- أو شيئا شبيه به- لا نضجت الرؤية، ولكسب أولو الأمر ثقة ومصداقية- هم أهل لها- ولترجمنا للعالم ولأنفسنا أننا نمارس حقوقنا الديمقراطية في بلد هو جدير بها..

وفي اعتقادي أن ذلك- في حال حدوثه- سيكون سابقة يُقاس عليها في شتى السياسات الداخلية والخارجية وستتقلص رويدا رويدا المساحات المعتمة في حياتنا وتتأكد الصلة بين الحاكم والمحكوم وهي الصلة التي بدونها تتحول الدول الديمقراطية إلي جمهوريات موز!!

إسرائيل وعصر الشعوب العربية !

ليس من شك في أن أعلام فلسطين التي كانت في أيدي الثوار المصريين في مليونية الوحدة الوطنية يوم الجمعة الماضي، قد أصابت إسرائيل باهتزاز، خصوصا أنها تضع أيديها علي قلبها منذ يناير الماضي، وتحديدا منذ ثورة ٢٥ يناير.

فهي تخشي علي أمرين، الأول معاهدة السلام، والأمر الثاني اتفاقية تصدير الغاز، وسريعا أقول: لابد أن نثق في المجلس العسكري الأعلى الذي بعث برسالة طمأنة إلي الدول في المحيط الإقليمي عندما أكد في وقت مبكر أنه يحترم كل المعاهدات والاتفاقيات السابقة، وكان يعني اتفاقية كامب ديفيد الموقعة مع إسرائيل، الأمر الثاني هو أننا يجب أن نثق في أحكام القضاء المصري، فالتحقيقات التي يقوم بها مع فلول النظام السابق تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن صفقة تصدير الغاز للعدو الإسرائيلي إلي زوال، وكلنا يعلم أن التحقيقات قد أثبتت أن نجلي الرئيس السابق كانا متورطين في هذه الصفقة، بل إن أحد أصدقاء النظام السابق كان أحد أركان هذه الصفقة!

الشيء المؤكد أن إسرائيل تصطك أسنانها احتكاكا، وترتعد أجهزتها مع كل صوت يتردد في ميدان التحرير، بل في الميادين العربية الأخرى، لأنها تعلم أن زمن الأنظمة العربية التي روضتها علي مقاسها قد ولي وانتهي

ليبدأ عصر الشعوب، فالنظام المصري السابق كان يهش ويبش في وجه قادة إسرائيل ولم يكن يعبأ بغضب الشعوب، وكلنا يذكر أن إسرائيل هي التي كانت حريصة علي بقاء سفارتها في مصر كاملة العدد، برغم أن مصر كانت قد سحبت سفيرها الذي ظل غائبا عن مكانه لفترات طويلة، وكانت التقاليد الدبلوماسية تقضي بأن تسحب إسرائيل سفيرها، لكنها لم تفعل.. أريد أن أقول إن إسرائيل كانت تحلم بموطئ قدم في المنطقة العربية، وقد وفر لها النظام السابق في مصر هذه الأمنية الغالية.

لكن عصر الثورات العربية الذي بدأ في تونس وأخذ عمقا عندما ترك الرئيس المصري السابق مكانه، واليوم يترنح النظام الليبي، ويهتز أيضا النظامان السوري واليمني، كل ذلك جعل إسرائيل تشعر أنها في خطر وأن النظم العربية التي كانت تخشاها وتفعل لها- زورا وكذبا- ألف حساب قد انتهي زمانها، ونحن مقبلون- شئنا أم أبينا- علي عصر الشعوب، وهو ما ترتعد له إسرائيل ارتعادا.. لماذا؟ لأنها لم تنس بعد المعارضة المصرية الشعبية لمشاركة إسرائيل (العدو الصهيوني) في معرض الكتاب المصري، وأذكر أني التقيت رئيس الاتحادات اليهودية في أوروبا الذي قال في حديث معه- رفض الأهرام أن ينشره في حينه: إن إسرائيل تريد تطبيعا شاملا مع الشعب المصري وليس مع النظام المصري!

لكننا نعرف أن العدو الإسرائيلي لن يقف مكتوف الأيدي، وإنما سيحاول مرارا وتكرارا مع قادة مصر الشعبيين والرسميين علي السواء، فهي مشغولة بكل ما يحدث في مصر اليوم وغدا وتسأل نفسها ألف سؤال عن رئيس مصر القادم، لكنها وبانتظار حدوث ذلك تسعي إلي ضرب الوحدة الوطنية، لا أريد أن يتهمني أحد بالميل إلي نظرية المؤامرة، لكن المؤكد أن إسرائيل هي المستفيد الأول من الفتنة الطائفية، وقديما وضع يهودي آخر هو جاك أتالي كتابا بعنوان اليهود والعالم والفلوس أكد فيه أن إسرائيل تحرص علي وجود يهود في أضيق دائرة لصنع القرار العربي في المغرب الأقصى وفي الخليج، ناهيك عن المشرق العربي والشرق

الأوسط، فهي كما يعلم الجميع- تسعي إلي ترويج السلام تارة تحت مسمي السلام أو العملية السلمية، وتارة أخري تحت مسمي عملية السلام، لكن ما لا يستطيع أن ينكره أحد أن إسرائيل تتحدث فقط عن السلام، لكنها أبدا لم تمارسه! فهي كما يقول مراقبون لم تحقق السلام الموعود وخطواتها كلها لا تحقق سوي سيناريوهات الحرب، هذا ما فعلته يوما بضرب المفاعل العراقي عام١٨٩١، واجتياحها لبنان في عام ١٩٨٢، وعبر قمعها المتوحش للانتفاضة الفلسطينية الأولي في أواخر الثمانينيات، وفي اغتيالها للقيادات الفلسطينية في تونس في العام نفسه، وقمها للانتفاضة الثانية سنة ٢٠٠٠ فصاعدا، ثم قصفها المفاعل النووي السوري عام ٢٠٠٧، واجتياح غزة عام ٢٠٠٨ إلي اغتيال القيادي الحماسي المدبوح في دبي في العام الماضي، هذا عدا حالات عديدة سرية ومخابراتية ربما لا تحصي استباحت فيها إسرائيل سيادة معظم الدول العربية.

إسرائيل في هذا الوقت الذي تتحدث فيه أمريكا عن مقتل أسامة بن لادن الذي صنعته في البداية ودربته علي أسلحتها الفتاكة من أسلحة وصواريخ تحاول الوقيعة، ليس بين أبناء الوطن الواحد كما هو الحال في مصر، لكن أيضا بين شيعة وسنة، ومثلما كانت تتحدث في الزمن الماضي عن حماستان وفتح للوقيعة بين الشعب الواحد، تفعل الشيء نفسه بين إيران كزعيمة للعالم الشيعي، والمملكة العربية السعودية كزعيمة للعالم السني!!

إن إسرائيل تدرك جيدا أن قوتها في ضعفنا، لذلك دأبت علي إحداث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد من المحيط إلي الخليج! الشيء نفسه يجب أن نفعله، فلا إرهاب مثلا إلا في عقل إسرائيل، وأمريكا والمحيطين بهما في أوروبا، يجب ألا نصغي إلي حديثهم عن الإسلام المتطرف، نتذكر جيدا أن إسرائيل في مأمن حتى اليوم من هذا التطرف، بل ما تفعله في الشعب العربي الفلسطيني الذي يدافع عن أرضه وسمائه ليس إلا أبشع ألوان الإرهاب، كما يجب ألا ننسي أننا لو طبقنا

معايير الإرهاب التي وضعها الأمريكان لكانت أمريكا نفسها أكبر دولة إرهابية في العالم.

فقط علينا أن نعمل.. فالعمل هو الطريق الوحيد لرقي ونهضة الأمم، وكل ما يأتي من إسرائيل من أفكار لابد من مراجعته، فإيران صديق للعرب، والجزر التي تحتلها قابلة للنقاش والحوار، وفتح وحماس هما شعب واحد، ويجب ألا ننسى كلمات نيتانياهو التي قال فيها إما أن يكون هناك صلح بين فتح وحماس، أو بين فتح وإسرائيل، ويجب أن نتذكر دائما أن هناك نوعين من الأمن يهمان أمريكا: الأمن النفطي، وأمن إسرائيل، وأن هذه الأخيرة هي الصديق الاستراتيجي الوحيد، بهذا قالت كونداليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة، وبهذا تقول السيدة كلينتون وزيرة الخارجية الأمريكية الحالية.

باختصار إن إسرائيل ليست بريئة مما يحدث في مصر، ومن الوقوف وراء الثورة المضادة، لا لشيء إلا لأنها لا تريد لنا غير الضعف والمسكنة، لكن هيهات.. فكلنا قد فتح عينيه ليجد إسرائيل ترتعد لصحوة الشعوب العربية.

الساكت عن الحق:

بدأ محافظ الدقهلية الجديد عمله من حيث انتهي سابقه اللواء سمير سلام.. وأكد أنه لا حكم إلا بعد العمل، فكان خير خلف لأفضل سلف.

تعذيب الذات العربية !

من بين دلالات القضية الفلسطينية (عربياً) أنها صورة من صور تعذيب الذات، فالعالم العربي لا يملك إلا أن يتحدث عنها ويطالب في أدبياته بحل هذه القضية، وإقامة الدولة الفلسطينية ذات السيادة.. لكن على الجانب الآخر، لا نشعر إلا بإسرائيل هي التي تفرض ليس فقط هيمنتها على الأرض الفلسطينية ولكن أيضاً على الإرادة العربية.. لأن العرب كانوا تقدموا في عام ٢٠٠١ بما يعرف بمبادرة السلام العربية، لم تلتفت إليها إسرائيل حتى هذه اللحظة..

واليوم نجد أن حال العرب أشد بؤساً وشقاء!.. فإسرائيل تطالب بمباحثات مباشرة مع الفلسطينيين ونجح نيتانياهو أن يصور للعالم بأن إسرائيل تريد السلام بدليل أنه التقى بان كي مون أمين عام الأمم المتحدة ثم صرح أمام العالم بأنه يُريد الانتقال إلي مباحثات مباشرة..

واقع الحال يؤكد أن المباحثات غير المباشرة لم تسفر عن شيء.. والأغرب أن نيتانياهو لا يفصل السياسة عن الإعلام، فكلنا يعلم أنه لا يريد سلاماً، وفي أرض الواقع لا يتحرك شيء إسرائيلي باتجاه السلام، لكن نيتانياهو خطط للقاء- لا معنى له- بين مباحث رئيس حكومة فلسطين، ويهود باراك وزير دفاعه ورددت وسائل الإعلام أضواء هذا اللقاء..

واستطاع نيتانياهو أن يقوم بتوظيف هذا اللقاء ليسبغ على لقائه مع أوباما جواً من الود والتفاهم لكنه في الحقيقة خدعه العالم بذلك، لأن لقاء فياض- باراك (؟؟؟) أي شيء، فقط كان أشبه «باحتفالية إعلامية» إسرائيلية لا أكثر ولا أقل..

قناعتي الكاملة بأن القضية الفلسطينية قد آلت بعد ٦٠ عاما من الصراع إلي ظاهرة إعلامية، تُديرها إسرائيل بنجاح مُنقطع النظير. فلم يحدث شيء في أرض الواقع منذ عشرات السنين، ولم يكف العرب عن ترديد الحق العربي الضائع، وحلم إقامة الدولة الفلسطينية وعند هذا الحد ينتهي كل شيء.. أما إسرائيل عبر كل حكوماتها المتعاقبة تتعامل مع القضية من منظور الميديا فهي تبتعد عن أمريكا (شكليا) وتختلف معها، حول القضية الفلسطينية، وتساوم العرب، وتغترب من هذه الدولة وتبتعد عنها بسبب القضية الفلسطينية.. وتدخل في هذه الدائرة أوروبا والاتحاد الأوروبي..

ويبدو أن نصيب كل العرب هو أن تكون القضية الفلسطينية واحداً من مبررات وجودهم، وهدفاً من أهداف حكوماتهم.. ثم لا شيء بعد ذلك والدليل أن الذي يحرك الأصوات أو لا يحركها هو إسرائيل فقط.

مراكز التفكير الاستعماري !

لقد ولى زمان كانت تحرص فيه القوى الكبرى في العالم على أن تبعث بجيوشها وعتادها لتحقل أرضنا وتؤثر في عقولنا وتقسّم حياتنا وولاءاتنا تقسيمات (على هواها!)

فجاء الإنجليز إلي مصر والسودان وزرعوا الفتن بين الشعبين (؟؟؟) ووصفوا الوجود المصري بأنه استعمار للسودان!

واحتل الفرنسيون بلاد المغرب العربي، واستأثرت إيطاليا بليبيا.. وكان الاستعمار الإنجليزي يعتمد اعتماداً أساسياً على (؟؟؟) الإنجليزي الذي كنا نبعده في الأزقة والشوارع شاهراً سلامه أو مترنماً في الحانات التي كان يعب الخمور فيها عبّاً!

وبدأنا نعيش مرحلة أخرى لهذا الاستعمار الذي لا يزال يتمسك ببلادنا سارقاً خبراتها، ناهباً مقدراتها..

لكنه قام بتغيير أسلوب السرقة والنهب، فلم يعد يعتمد على وجود العسكري «المرجح بالسلاح دائماً شرع يعبث بالعقول ويملأها بأفكار تجعل من شعوبنا عبيداً له، واعتمد- لتحقيق ذلك- استراتيجية أخرى من شقين، الأول أن يغزو العقول بثقافته على أن نفاخر العالمين بذلك، ونحتقر في الوقت نفسه خصوصياتنا الثقافية، فيعرف التلاميذ فيكتور هوجو وشكسبير مثلاً، ويجهلون تماماً محمد عبده والعقاد وطه حسين..

الشق الثاني لهذه الاستراتيجية هو ما نعانيه ونشكو منه مرّ الشكوى، ويتعلق بتجنيد طبقة الانتلجنسيا العربية (والمصرية) لخدمة أغراضه عبر كتابات ملوّنة، ومراكز أبحاث لا هدف لها سوى تجميع بيانات ومعلومات عن كل شيء ليكون تحت تصرف صاحب القرار الاستعماري..

ولقد اعتمد الاستعمار الجديد- وهو بالدرجة الأولى استعمار أمريكي على ما يسميه هو عقل الأمة» فحرّص الكثيرين على إنشاء مراكز بحثية يسميها الغربيون: بمراكز التفكير، وقدم تسهيلات مادية وعينية كثيرة لهذه المراكز المكلّفة أساساً بوضع دراسات مُستفيضة عن أحوال العرب (ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم..)

الغريب أن هذا الاستعمار الجديد قد ضمن لنفسه السيطرة والهيمنة والقدرة علة التحكم في مصائر شعوبنا عبر تجنيده لهذه الطبقة (في معظمها) لتكون خادمة له، مُحقّقة لأغراضه، فكأنه استطاع أن يحقق لنفسه عبر هؤلاء المتعاونين معه، ما كان يحقق عبر جيوشه وأساطيله.. جاءتني هذه الفكرة عندما دارت مناقشة مع مسئول أحد هذه المراكز الذي رفض أن يذكر اسم أمريكا أو إسرائيل على لسانه.. والثاني عندما التقيت في مدينة قاس بالمغرب بسيدة تونسية قالت إنها ستأتي إلي مصر لرصد مراكز التقليد فيها.. وتأثيرها على الناس وأجندتها الخارجية!

لا مكان للعرب!

لو قسمنا العالم- من وجهة نظر عربية- لجاءت في المقدمة الولايات المتحدة الأمريكية التي يؤمن العرب إيمانا راسخا بأنها تملك ١٠٠٪ من الأوراق في يدها ولذلك اصطفوا اصطفافا وراء بعضهم البعض أمام أمريكا طالبين منها كل شيء: الرؤية والرأي والقوة والحماية، والقبول!!

ثم تأتي إسرائيل في المرتبة الثانية.. فهي شغل العرب الشاغل بعضهم يطلب ودها، وبعضهم الآخر يناصبها العداء في العلن، وبعضهم الثالث يقيم علاقات قوية معها في الخفاء.. وإسرائيل لا تتردد لحظة واحدة عن ممارسة العربدة في حق العرب والمسلمين- فأعمال الحفر متواصلة لتقويض بيت المقدس، وسرقة التراث الإسلامي وضمه إلي التراث اليهودي لا تتوقف لحظة واحدة وتهويد القدس هو عمل إسرائيل بامتياز.. وأخيرا قررت إسرائيل طرد عشرات الفلسطينيين من الضفة الغربية بالقوة! والعرب في شغل عن هذا كله، إلا بعض الدول العربية تتحرك على مستوى الإدانة والتصريحات المناوئة، بينما دول أخرى لم تكلف نفسها مشقة متابعة هذا الحدث.. وتعاملت مع طرد الفلسطينيين وكأن شيئا لم يكن!

ونفرض قادة العرب اتجهوا من فورهم إلي الولايات المتحدة يبعثون بالرسائل ويطلبون منها أن تمارس ضغوطا على إسرائيل لكي توقف هذه

الجريمة.. لكن أمريكا كانت مشغولة بشيء آخر هو انعقاد قمة الأمن النووي.. الذي أرادت فيه أن تحشد دولا أخرى ضد إيران، فلا شيء تهتز له أمريكا اليوم إلا ما تسميه هي بالملف النووي الإيراني.. والعرب بين جبروت إسرائيل وإهمال أمريكا في حيرة من أمرهم وغاب عن بال العرب من المحيط إلي الخليج أن الأزمة يمكن أن تدار بطرق أخرى، فلغة العصر هي لغة المصالح ولأمريكا مصالح شتى بين أيدي العرب عبر النفط والتجارة والتصدير والقواعد العسكرية الموجودة في أرضهم.. والمؤسف أن العرب لم يحاولوا قط استخدام إحدى هذه المصالح للتلويح إلي أمريكا بأن مساندتها الدائمة للظلم الإسرائيلي سوف يعرض هذه المصالح للخطر.. والغريب أن إسرائيل سادرة في غيها تواصل القتل والضرب والتجويع والطرد في حق الشعب الفلسطيني وتمارس إرهاب الدولة، دون أن يطرف لها جفن.

وأمريكا تدعم هذا كله، وترى أن من حق إسرائيل أن تدافع عن نفسها ضد أطفال لا يحاربون بغير الحجارة!

والعرب ينظرون إلي إسرائيل في شيء من غضب وإلي أمريكا في توسل ورجاء.. بينما أمريكا لا تعير الأمر اهتماما، فهي مشغولة دائما بالحليفة الاستراتيجية الأولى في المنطقة وهي إسرائيل.. ولا مكان للعرب!

«لا» لتسيس الرياضة!

ليس بوسع أحد إنكار حالة «الاستعداء» و «التجييش» التي تقوم بها وسائل الإعلام (مقروءة، ومسموعة، ومرئية) في الجزائر ومصر بمناسبة المباراة التي جرت بين المنتخب المصري والفريق الجزائري..

والحق أنه لا يوجد ما يُبرر هذه الحالة التي كان البعض يتحدث عنها همساً في الأيام السابقة فإذا بهؤلاء يتحدثون عنها صراحة دون خجل أو أدنى شعور بالمسئولية، والمؤسف أن بعض الهواة وأنصاف النجوم والفنانين قد وصفوا على عجل شرائط وسيديهات غنائية تذكر نيران الكراهية بين الشعبين العربيين، وبين الشقيقتين الجزائر ومصر..

وكم هو شاق على النفس أن نجد السماء تتلبد بالفيوم، وتملأ الفضاء بين البلدين سحائب سوداء داكنة بلا معنى!

والقاعدة التي لا تغيب عن بالي هي أن العلاقات المصرية الجزائرية أكبر وأعمق وأعرض من أن يتم اختزالها في مجرد مباراة لا يزيد وقتها عن ٩٠ دقيقة.. ولا شك أن تاريخ هذه العلاقات حاضر في الأذهان، فالجزائر كانت أول دولة عربية تبعث برجالها (البواسل) ليشاركوا الجيش المصري حربه ضد إسرائيل في العاشر من رمضان عام ١٩٧٣.. وتحدث وقتذاك الرئيس الجزائري الأسبق هواري بومدين عن الدم العربي الواحد، والمصير والمستقبل الذي لا ينفصم! وكلنا يذكر أن مصر كانت

هي الحاضنة لرجال ثورة التمرير الجزائرية وعلى رأسهم الرئيس أحمد بن بيلا.. الذي رضع الثورة في أرض الكنانة عندما كانت مصدر التثوير في المنطقة العربية والعالمثالتيه..

وتوطدت علاقات الثورتين المصرية والجزائرية.. وامتدت إلي الشعبين فكان انتصار الثوار الجزائريين امتداداً لانتصارات الثورة المصرية..

وتواصل التعاون والتآذر وقام المصريون بثورة التعريب لمقاومة سياسة الفرنسة التي فرضها الاستعمار الفرانكفوني على الجزائر التي اعتبرها أرضاً فرنسية ممتدة جنوبا عبر المتوسط..

وأذكر أن كتب المفكر الكبير عباس العقاد- وخصوصاً الإسلاميات والعبقريات- إذا تم ضبط كتاباً منها لدى شخص جزائري.. كان يُسجن بعد دفع غرامة مالية ضخمة.. والسبب هو أن الاستعمار الفرنسي كان استعماراً ثقافيا واستيطانيا في آن واحد.. ولأن مؤلفات العقاد كانت ضوءا تهرب من أمامه الظلمات، فكان لابد من معاقبة من يقتنيها..

والثابت أن هذا النوع من المؤلفات الذي كان يدفع الجزائريين على الاحتفاظ بهويتهم العربية والإسلامية لعب دوراً في بقاء الجزائر عربية وعروبية في آن واحد..

ونحن إذ نلفت الانتباه- في هذه العُجالة- إلي وحدة الأصل العربي، وتقاطع العلاقات بين الجزائر ومصر، والدور الذي لعبته كل دولة في تاريخ الأخرى.. لا يعني ذلك- لا من قريب ولا من بعيد- أي شكل من أشكال التعالي أو الزهو أو الشعور بالتفضل والمن.. وإنما يعني أن قراءة التاريخ القريب والبعيد مُهمة، وهي مكتظة بالدروس والعبرّ كما يعني- بالدرجة الأولى- أن العلاقة بين الدولتين أكبر من أن تنال منها مباراة رياضية أياً كانت نتيجتها..

وإذا كان لابد من استخلاص الدروس فجميع الدلائل تشر إلي أن العلاقات العربية- العربية أصبحت أكثر هشاشة مما كنا نتصور.. والسبب هو (علو كعب)

النعرات الإقليمية وتغلغل الشعور بالعُزلة داخل النفوس..

ومما يزيد النفس قنوطاً انحسار المدّ العروبي، لحساب الانعزالية والانعزاليين وغياب الحديث عن الفضاء العربي الممتد من المشرق إلي المغرب أو من الخليج إلي المحيط..

وأصبح من يتحدث عن القومية العربية أشبه بمن يتحدث عن العنقاء التي نسمع عنها ولا نراها..

وكأني بهذه المباراة بين مصر والجزائر هي ناقوس الخطر الذي يجب أن يدق لتحذير العرب من مغبة الاستمرار في طريق القُطرية والنزعات التفكيكية التي لا ترمي إلا بشيء واحد هو شحن المواطنين العرب ضد بعضهم البعض.. والإنصاف يقضي بأن تعترف بأن هذا الشعور المتنامي من الكراهية داخل صدور بعض الشباب في مصر والجزائر هو نتيجة وليس سبباً.. وأعني بذلك أنه ثمار فجة لحالة من حالات التصحر الثقافي والعربي التي تعانيها الأجيال العربية الشابة التي تعيش مرحلة فارقة في حياة الأمة.. فهناك من يتمادى بزوال اللغة العربية أو هدمها (لا فرق).. وهناك من يسخر من أي شخص يتحدث عن التاريخ العربي ويصفهم بالقومجية من قبيل التندر والتقليل من الشأن..

والدليل على ذلك أن الأجيال العربية التي انتصف القرن في عمرها يعرفون لمصر قدرها.. ويحفظون أشعاراً لأمير الشعراء، وتساعد النيل، وقرءوا مسرحيات توفيق الحكيم، وتتلمذوا على مؤلفات طه حسين والعقاد والمازني.. وزارة الفقيه الدستوري الكبير عبد الرازق السنهوري بلادهم وترك بصماته القانونية فيها..

وكانوا قد تعلموا في جامعاتها، وطالعوا في مكتباتها.. وهو حال مغايرة لما يحدث اليوم.. فالشباب العربي الذي يزيد عمره عن عشرين عاماً لا يعرف مصر إلا بالكاد، وعسير عليه أن يتابع حركة النظافة والأدب والفكر فيها.. وولي وجهه

تسطر بلاد الفرنجة، والإنجليز والأمريكان.. وخبا ضوء مصر في صدره..

لذلك- عند اشتداد الأزمات- لم يجد هؤلاء في حياتهم ما يعصمهم من الخطأ في حق بلدانهم وفي حق مصر..

وهو ما يعني أن حالة «التجييش» التي يعيشها شباب اليوم سواء في مصر أو في الجزائر هي جريمة ناتجة عن جريمة أكبر وهي تغييب مصر في نفوس العرب..

ومعلوم أن دعاة الانعزالية قد طربوا لذلك، وأخذتهم النشوة إلي حدود بعيدة.. وسيطر بعضهم على وسائل الميديا ولم يتورعوا عن توجيه خطابات نارية تشحذ النفوس، وتجعلها قابلة للاشتعال ضد بعضها البعض..

إن هذه المباراة التي يضع الكثيرون أيديهم على قلوبهم خوفاً من أن تشعل (حربا أهلية) بين مصر والجزائر..

لا يجب أن تأخذ من اهتمام جمهور الكرة في البلدين إلا ما تستحق من مساحة.. ناهيك عن أن (؟؟؟) هي مدرسة التسامح الأولى، فالفائز فيها ليست فائزاً طوال الوقت، ولا الخاسر فيها سيظل خاسراً مدى الحياة..

والكرة هي أشبه حالاً بالشعلة الأولمبية التي تنتقل من جيل إلي جيل.. والمهم أن تظل مرتفعة في الفضاء.

ولابد من توجيه اللوم إلي أولئك الذين يجلسون على الأرائك خلف الشاشات والفضائيات يلقون بالكلام على عواضه ويسكبون الزيت على النار، مع أنهم أول من يعلم أن النار إذا اشتعلت فهي لن تبقى ولن تتحدث وأن كبرياء الحرائق لا تأتي إلا من مُستصغر الشرر وأكثره هوانا وضعفاً.

والواجب الوطني والقومي يُحتم أن ننزع فتيل هذه الأزمة المفتعلة والتي لا طعم ولا رائحة لها سوى الاستعداء بلا مبرر.. فما بين البلدين والشعبين لهو أكبر من أن يضيع هباء بسبب هذه الساحرة المسحورة.. (أقصد الكرة).. وعلى كل

صاحب قلم أو رأي أو فكر أن يبدد سحب العداوة لتحل محلها الروح الرياضية المعروفة عن الرياضيين العالمين..

فاليوم فوز، وغدا خسارة، والعكس قد يموت دونما أدنى حساسية أو ادعاء. مرة أخيرة، ليتنا نستدرك ما فاتنا في السنوات الخوالي ونبدأ من جديد بالحديث (المشفوع بالعمل) عن بلاد العَرب أوطاني من الشام لبغداد ومن نجد إلي يمن.. وتطوّن بين حناياها مصر والجزائر (شعبا وأرضاء وسماء..)

الفرعونية والفرنسة!

الوصف الدقيق لما أحدثته مباراة مصر والجزائر الأخيرة في السودان من تداعيات هو الزلزال.. فالتصدع قد ظهرت تشققاته في أكثر من موقع ناهيك عن السجال الذي حدث وشاركت فيه أطراف عديدة.. ولعل ما تفجر من نقاش ومراجعة في مصر والجزائر بشأن الهوية العربية هو أخطر ما حدث حتى الآن، فالنعرات الإقليمية والقُطرية قد عادت مُجدداً تعجبت لنفسها عن موطئ خدّم في النقاش العام.. ففي الجزائر- كما نعلم- ينتظم النظام السياسي وحركة المجتمع بشكل عام تيارات الأول هو تيار «الفرنسة» ويعني الارتباط بفرنسا دولة الاستعمار الأولى في الجزائر ومن ثم التحدث بلغتها والسير في ركابها مجتمعياً وسياسياً.. ولا يرى أنصار هذا التيار غضاضة من الإعلان عن رغبتهم في تقمص الهوية الفرنسية!.. والثاني هو تيار «العروبة» الذي يسعى إلي الارتباط بالقومية العربية، والإعلان عن الهوية الجزائرية التي ترتكز على اللغة والدين- والعادات والتقاليد المشتركة مع القضاء العربي- ومما ساعد في تقوية هذا التيار أن قادة حركة التمرير الوطني ورموز الاستقلال يناضلون من أجل ترسيخ تيار العروبة ويعتبرون أنه لا هوية للجزائر بعيداً عنه.. وإذا انتقلنا إلي مصر سنجد أن النعرة الفرعونية الإقليمية قد عادت مرة أجرى، وتحمس لها ما نسميهم بالانعزاليين الجُدد.. وهي دعوة قديمة كان من رموزها نفر من الكتاب والمفكرين يأتي على

رأسهم توفيق الحكيم، ودعاة الكتابة بالعامية أمثال منصور فهمي قديماً.. لكن لا ننس أن هناك عدد لا بأس به بين منقض اليوم يرون أن الفرعونية هي الأصل ومن ثم لابد من العودة إليها على حساب العروبة.. ولقد تملىّ ذلك من خلال أكثر من موقف لعل أبرزه من هذه الأيام أن يطالب أحد الكتاب بأن تصبح مصر جمهورية مصر الفرعونية بدلاً من جمهورية مصر العربية!

بالطبع هناك التيار العروبي الذي يناصب تيار الانعزال العداء، ويرى أن العروبة ليست رداء نلبسه صباحاً ثم نخلعه حساء أو إنما هي متأصلة فينا (؟؟؟) في أعماقنا ويشيرون إلي تجربة صاحب قصة زينب الدكتور محمد حسين هيكل التي أعترف فيها بأن الفرعونية هي رموز ميتة لا حراك فيها بعكس التاريخ الإسلامي النابض بالحياة، ناهيك عن أننا لو خلفنا توب العروبة فلن يتبقى لنا سوى مجموعة من الأحجار التي لا روح فيها..

باختصار لقد عاد النقاش قوياً سواء في مصر أو في الجزائر حول الهوية العربية للبلدين.. وهي مناسبة جيدة لإدارة سجال من نوع راق يخلو من التشنج والانفعال.. بتاريخ الأمم لا تطمسه مباراة ولا يمكن اختزاله في دقائق معدودات..

مصر والجزائر: صفحة جديدة

ليس من شك في أن زيارة الرئيس المصري لجزائر قد خطيت باهتمام وسائل الإعلام المختلفة فأكدت استطلاعات الرأي أنها كفيلة بأن تُعيد العلاقات المصرية الجزائرية إلي سابق عهدها من الانسجام والتفاعل والايجابية في إطار منظومة العمل العربي المشترك.. وأنها- في ذات الوقت- قد تجاوزت أزمة الكرة التي أخذتها مباراة أم درمان في السودان وطوت صفحة الشروخ التي كثرت في جسد العلاقات الثنائية وأشعلت فيها النيران وسائل الإعلام في البعدين..

والمعروف أن العلاقات بين الدولتين كانت تتميزّ طوال السنوات الماضية بدرجة كبيرة من التفاهم المتبادل.. وهي تدافعنا وحقاً إلي استدعاء تاريخ هذه

العلاقة منذ الدعم الهائل الذي قدمته مصر لحركة التحرير الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي.. وقد لا يعلم أبناء هذا الجيل أن فرنسا اشتراكية في العدوان الثلاثي على مصر انتقاماً من الدعم المصري للثوار في الجزائر.. كما لا يعلمون أن الرئيس الجزائري الأسبق هواري بومدين دفعّ الدرس شيكا على بياض لتقديم كافة أنواع الأسلحة لمصر في حربها ضد إسرائيل في عام ١٩٧٣.. وكلنا يذكر أن حركة التعريب التي عاشتها الجزائر بعيد الاستقلال كان المصريون من بين قادتها.. وقد عاش في مصر - الستينات« كتاب من الجزائر أشهرهم مالك بن بني صاحب مؤلفات منها الظاهرة القرآنية، وجهة العالم الإسلامي، وصاحب نظرية «القابلية للاستعمار» وكانت تربطه علاقات طيبة بالرئيس جمال عبد الناصر في ذلك الوقت..

ولقد تعلم مصريون كثيرون على أيدي أساتذة من الجزائر مثل البروفيسور محمد أركون أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة السوربون في باريس.. وهذا معناه أن هناك تدويرا للثقافة العربية: فلقد علمنا الجزائريين، وقاموا هم بتعليمنا.

لا شك أن زيارة رئيس مصر للجزائر ومباحثاته مع الرئيس الجزائري سوف تعيد إلي الذاكرة المصرية والعربية المعاصرة هذا التراث من العلاقات المتبادلة التي نحت أحوج ما نكون إليها من منطلق لغة المصالح التي لا تجيد السياسة غيرها..

وفي ظني أن عودة المياه إلي مجاريها بين الدولتين والتي دشنتها هذه الزيارة سوف تجعل الأقلام الصغيرة (مُشعلة النيران!) تتوقف عن السموم التي تروجها.. فالجزائر دولة عربية كبرى، وطموحاتها العربية على نفس المستوى. وللإنصاف يجب أن نذكر أن أحداً من رجال السياسة قد تطاول على مصر في (هوجة) التطاول الإعلامية في أعقاب المباراة المشئومة..

مصر والجزائر أكبر من أية عقبات، والحفلة السياسية ثم الاعتزاز بالأصول العربية المشتركة كانت العتبة الأساسية لهذا اللقاء الثنائي بين الرجلين

عروبة مصر بين الثابت والمتحول !

يؤلمني ويشقيني كثيرا أن أجد نعرات الإقليمية والفرعونية تعود من جديد لتملأ أرجاء مصر من حولنا وكأن العروبة رداء نلبسه صباحا ثم نخلعه ليلا وغاب عن بال الكثيرين أن مصر العربية هي الثابت الأبدي الذي لا يجدي معه سجال، وإذا أضفنا إلي ذلك أن استدعاء هذا النوع من الحديث جاء عقب مباراة لا تزيد مدتها علي ٩٠ دقيقة أدركنا علي الفور أن هناك شططا في معالجة الأزمة لأن حال هؤلاء المتحدثين عن الفرعونية أشبه بحال من فقأ عينه بنفسه انتقاما من شقيقه الذي اختلف معه في الرأي..

والإنصاف يقضي بالقول إن الحديث عن الفرعونية في مصر هو حديث قديم جديد يقابله في الجزائر حديث عن الفرنسة(كفرا بالعروبة والعروبيين..) وكلنا يذكر تجربة صاحب قصة زينب(محمد حسين هيكل) مع الفرعونية، فلقد اعترف الرجل أن فكرة العودة إلي الجذور قد استهوته حينا من الدهر، وشرع بالفعل يكتب عن أحمس، ورمسيس، ونفرتيتي، وحتشبسوت ودبج الصفحات تلو الصفحات في أمجاد هؤلاء، وتاريخهم الذي لا يجادل أحد في أنه جزء أصيل من تاريخ المصريين، لكنه اكتشف بعد سنوات أن أحدا لم يتجاوب مع ما كتب.. بعكس كتاباته الإسلامية، وروي الرجل كيف استقبل جمهور القراء كتابه من وحي

محمد الذي قيل إنه طبع منه عشرات الطبعات في وقت وجيز، وعاد عليه بربح وفير بني به بيتا كبيرا في صحراء مصر الجديدة وقتئذ! وخلص محمد حسين هيكل إلي أنه قد أخطأ عندما ظن أن الفرعونية بكل رموزها يمكن أن تكون بديلا عن الفترة الإسلامية بكل ما تعنيه من ثقافة وفكر وفلسفة.. وانتهي بالقول إن الفرعونية هي أحجار ميتة (لا روح فيها)، بينما مصر الإسلامية نور وإشعاع وحضارة ومياه تضج بالحركة والنشاط..

ليس من شك في أن المتشدقين بالفرعونية اليوم، لو كانت أتاحت لهم ظروفهم التربوية والعلمية أن يقرئوا هذه التجربة التي عاشها واحد من أعلام النهضة المصرية، لما أعطوا لأنفسهم الحق في أن يملؤوا الدنيا ضجيجا بحديث قديم عن مرحلة تاريخية لا حياة فيها..

وقديما (وربما من جانب آخر) انطلقت دعوات تستهدف عروبة مصر ولكن عبر بوابة اللغة العربية، فخرج علينا من يطالب بكتابتها بالحروف اللاتينية.. ومن يتحمس لكتابة العامية ونحر لغة القرآن عيانا جهارا..

لكن ذهبت هذه الدعوات أدراج الرياح، وبقيت العروبة واللغة العربية شامخة كالجبال ثم علينا أن نتساءل ماذا سيبقي لنا إذا تركنا لغة الضاد وثقافتها وتاريخ العرب وانتصارات وهزائم المسلمين وطوينا صفحة مفكري الإسلام وفلاسفته أمثال ابن سينا والفارابي والكندي وابن خلدون وابن رشد وصولا إلي الشعراء المحدثين أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم والمفكرين والأدباء أمثال عباس العقاد وطه حسين، بل إن الأخير سيتعين علينا أن نغير صفته إذ لم يعد وفق هذه الدعوات الإقليمية والقطرية الضيقة بالإمكان تسميته بعميد الأدب العربي، وكذلك توفيق الحكيم لن يكون بعد اليوم عميدا للمسرح العربي..

إنه الخواء الذي سيعم حياتنا وهي بحالة التصحر التي حذرنا منها فيلسوفنا الراحل زكي نجيب محمود الذي وجد إن لدي البعض هواية اقتلاع الأشجار

الباسقة في حياتنا الفكرية والثقافية!

إن عروبة مصر ليست ثوبا مزركشا نلبسه حينا من الدهر ثم نلقي به في سلة المهملات أو نقذف به علي قارعة الطريق، أنها الجسد والروح معا ولا مجال للحديث عن شيء آخر، بل أن الريادة التي حققتها مصر باقتدار عبر المد الثقافي المصري هي في الأصل ريادة عربية وليست فرعونية، وكتابات عباس العقاد التي ساعدت في نجاح ثورة التعريب في الجزائر لم تكن مكتوبة بالهيروغليفية إنما بلغة القرآن ويروي أن إسلاميات العقاد كان يتلقفها الشعب الجزائري أبان ثورته ضد الاحتلال الفرنسي خصوصا سلسلة العبقريات ويقرؤها بنهم شديد، بل كانت صلته المباشرة بالدين الإسلامي الحنيف لذلك كان الفرنسيون يفرضون غرامات مالية ضخمة علي كل من تصبط معه هذه المؤلفات.

وظل الأزهر الشريف يشع بنوره اللغوي والديني علي كل الدول العربية والإسلامية خصوصا في المغرب العربي ولم يكن يري أية غضاضة في أن يتولي مشيخته عالم تونسي هو الخضر حسين وان يتولي منصب قاضي القضاة في مصر تونسي آخر هو عبد الرحمن بن خلدون صاحب المقدمة الشهير.. واستقبلت مصر مفكرا جزائريا من طراز فريد هو الفيلسوف مالك بن نبي الذي ترك علماء الأزهر بصماتهم الفكرية علي حياته وكان من ثمرات هذه المرحلة الأزهرية كتابه الأشهر الظاهرة القرآنية الذي ترجمه إلي اللغة العربية الدكتور عبد الصبور شاهين.. أريد أن أقول إن هذا الحضور المصري في العالم العربي هو حضور عربي بلغة الضاد أولا، أما الفكر العروبي فكلنا يعرف أن مصر كانت قلبه النابض ولا تزال وهو قدر وليس اختيارا، ولئن كان البعض يتنادي بين وقت وآخر بالنكوص عن العروبة سواء في مصر أو في الجزائر وبعض الدول العربية الأخرى، فلأننا أهملنا لعقود متتالية تربية النشء العرب علي الانتماء إلي فكرة القومية العربية التي ملأت حياة الأجيال البعيدة فكرا وطموحا وثقة.

والأخطر هو أن كبار المفكرين والمثقفين قد تخلوا عن دورهم التنويري وتركوا النشء نهبا لأفكار واردة من هنا وهناك تحرض علي كراهية الآخر، والانكفاء علي الذات، وقد ساعدت ثورة الاتصالات في ذلك، فبات صغار الفنانين والفتية الصغار من المدونين هم الذين يرسمون سياسات الدول، ويضعون الخطط وكلنا يعرف أن التهييج والاستعداء والتربص قام هؤلاء بالجزء الأكبر منه وتولي أمر الجزء الباقي نفر من مقدمي البرامج الحوارية في الفضائيات الخاصة، وكانت النتيجة أن تم تغييب الوعي لدي الشباب، والتعتيم علي ثقافة سياسية هي في الأصل إن لم تكن غائبة فهي شاحبة ولا ملامح لها.

وإذا علمنا أن الفكر العربي يتعرض منذ سنوات لمحاولات تقزيم بحيث يبدو صغيرا تافها لحساب الفكر الانعزالي الذي ينادي بالقطرية، بل بما هو دون ذلك، لأدركنا علي الفور أن في الأمر مؤامرة تظهر حينا بألسنتها الحارقة ثم تخبو حينا لكنها لا تموت.

وإذا لم تكن قد تفجرت هذه القضية بسبب مباراة بين دولتين عربيتين كانت بالقطع ستفجر في مناسبات أخري، لكن للإنصاف يجب أن نذكر أن مصر قد عالجتها علي المستوي السياسي بحكمة معروفة عنها، فعندما أكد الرئيس مبارك في خطابه أمام مجلسي الشعب والشورى أن حماية المصريين في الخارج هي مسؤولية الدولة وأن كرامة المصري من كرامة مصر دون أن يشير لا تلميحا ولا تصريحا للمباراة التي فجرت كل هذا الضجيج، كان يؤكد أن علاقات مصر الخارجية وتوجهاتها العربية أكبر من أن يعكر صفوها مجرد مباراة رياضية، والأهم أن هذه العلاقات يحكمها أمران: الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة.

بكلمة أخري: إن دعاة الانعزالية لا مكان لهم، فعروبة مصر فوق كل اعتبار ولا يمكن التضحية بالهوية لمجرد انفعال أو ضيق مهما كانت الأخطاء التي وقعت في سياق مباراة، لأن مصر أكبر من أن يتم اختزالها في حدث ما أيا كانت تداعياته.

بالأمس كانت «العراق»..

واليوم «سوريا».. وغداً «مصر»!

ولذلك فكل الطروحات الأمريكية لا تستهدف إلا شيئا واحدا هو تقزيم مصر والتقليل من أهميتها، والتعامل معها بدرجة من اللامبالاة لإشعارها بالضآلة والهوان.. ولذلك أرى أن أي حديث مسرف عن علاقات متميزة وإستراتيجية بين مصر وأمريكا هو حديث فارغ من المعنى.. فالأطماع الأمريكية في كل الأحوال كل لا يتجزأ، ولأن مصر تقع بحكم الجغرافيا والتاريخ في قلب الشرق الأوسط، فإن المطامع الأمريكية في المنطقة لابد أن تطال مصر إن آجلا أو عاجلا.. وإذا تذكرنا أن مشروع الشرق الأوسط الكبير- كما أعلنت عنه الإدارة الأمريكية- يبدأ بتحويل العراق إلي مستعمرة أمريكية «تحت زعم دمقرطتها» ثم ينتقل إلي سوريا فإيران.. فإن مصر- والحالة هذه- لن تكون بعيدة وهي- في كل الأحوال- ليست في مأمن، فالخطر قادم لا محالة. فبالأمس كانت العراق التي يتساقط أبناؤها ضحايا للاحتلال الأمريكي، والنخب السياسية العميلة!»..

واليوم- كما نرى ونسمع- تحوم البوم و(الغربان) حول سوريا التي يتكرر معها سيناريو مشابه للسيناريو العراقي.. فبشار الأسد تم استبعاد اسمة من قائمة الأشخاص الذين تتعامل معهم أمريكا (كما كان الحال مع صدام حسين في زمنه).. وسوريا متهمة بالخروج عن طوع أمريكا

(وكذلك كانت العراق قبل سنوات).. وتحريك أمريكا للمعارضة السورية يسير على قدم وساق بصورة تستدعى إلي الأذهان لقاءات أطياف المعارضة العراقية في لندن وباريس..

وقبل ذلك أقر الكونجرس الأمريكي قانون معاقبة سوريا واعتبرها (عقبة كأداء) تقف في طريق الأطماع الأمريكية والإسرائيلية في المنطقة..

إذن نحن أمام سيناريو جديد- قديم، فضرب سوريا (وإسقاط نظامها) واستعداء الحلفاء عليها (خصوصا فرنسا) بات مطروحا بقوة، والمسألة لم تعد أكثر من مسألة توقيت زمني.. (هكذا تتحدث دوائر سياسية في أمريكا وأوروبا).. وفي السياق نفسه يتم التحرش بإيران المتهمة (كحال العراق في السابق) بالسعي إلي امتلاك سلاح نووي- ثم إنها لا تعترف بإسرائيل، وتتحدث عنها بكراهية (اعتبرها الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش شيئا مؤذيا فقال لو كنت إسرائيليا لما تحملت الخطاب الإيراني عن بلدي!) وكأنه بذلك يبرر ما تتحدث عنه أوساط عسكرية غربية من أن إسرائيل تستعد لتوجيه (ضربة) جوية صارمة لإيران، تسوي فيها مفاعلاتها النووية بالأرض على نحو ما حدث في عام ١٩٨١ مع المفاعل النووي العراقي..

أبعد كل ذلك، يمكن أن يتحدث أحدنا عن أن مصر بعيدة عن هذا المخطط الاستعماري الأمريكي. أقسم بالله ثلاثا أن من يرجح هذا القول ليس إلا كاذبا أو مخادعا، لأن مصر تقع- منذ اللحظة الأولى للمخطط الاستعماري الأمريكي- في قلب الهدف.. وهذا ليس تجنيا أو افتئاتا على الحقيقة، فرجال الحرب في أمريكا يتحدثون عن سقوط دول الشرق الأوسط (الواحدة تلو الأخرى) وعندما سئلوا عن مصر قالوا في صوت واحد: إنها الجائزة الكبرى، أو في قول آخر: هي درة التاج.

إذن مصر- يا قوم- لا تبرح الخيال الأمريكي لحظة واحدة، ليس كصديق كما

يتوهم الواهمون- دائما كمنطقة نفوذ يجب أن تمتد إليها الأصابع الأمريكية إن طوعا أوكرها! فبالأمس كانت العراق، واليوم سوريا، وغدا مصر.

المؤسف أن المخاتلين أو (المخادعين) وما أكثرهم يضحكون على الذقون فيتحدثون عن أن مصر ليست- بلغة العسكريين- في بؤرة المرمى وإنما هي- على رأسها ريشة!!- ولن تلقى عليها طائرات أمريكا- حجارة من سجيل- كما فعلت ذلك عندما دكت بغداد والموصل، والفلوجة، والنجف والرمادي..

إنه حديث إفك يراد به الباطل من أوسع الأبواب، فمصر تتعرض بالفعل لمضايقات شديدة تخطط لها أمريكا (وتدعمها إسرائيل) منذ زمن.. وتطلب واشنطن من مصر تنازلات وطنية وقومية وإقليمية وعندما تقابل بالرفض تخرج العصا الأمريكية (بدلا من الجزرة الوهمية) فتلغي واشنطن اجتماع الدول الثماني الكبرى الذي كان مقررا في شرم الشيخ، وترجئ زيارات لشخصيات مصرية كانت مقررة منذ فترة، وتلوح بمزيد من الضغوط إذا وقفت مصر في طريق تعديل المناهج الدراسية في المدارس أو إذا اعترضت على تطبيع (دول عربية) علاقاتها مع إسرائيل..

وقد أحزن أمريكا أن تتمسك مصر بالمبادرة السعودية باعتبارها المرجعية الوحيدة في التعامل مع الدولة العبرية.

باختصار، إن أمريكا تريد من مصر (انبطاحا) لا (انفتاحا)، وما دامت مصر ترفض وتأبي، وتعترض فالويل والثبور وعظائم الأمور لها ولشعبها..

بمعنى آخر: إن حرب أمريكا ضد مصر قائمة بالفعل وبمجرد سقوط سوريا (وهو أمر وشيك) فسوف تدور الدوائر- حتما- على مصر ولذلك فالالتفاف حول القيادة المصرية في المرحلة المقبلة سيكون فرض عين على كل صاحب عقل وعينين!.

صحوة الشعوب العربية

إن ما حدث في تونس وما يحدث حاليا في مصر.. والأردن وليبيا واليمن.. ثم الحديث عن أن الشعب يريد إصلاح النظام في البحرين..

والجزائر والمغرب يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن العالم العربي.. أو بالأحرى شعوب العالم العربي من المحيط إلي الخليج إنما هي شعوب واحدة..

وأن الصحوة التي يعيشها العالم العربي إنما هي صحوة حقيقية وليست مجرد عدوي كما يحلو للبعض ممن يميلون إلي الاستسهال أن يقولوا..

صحيح أن بعض الشعارات قد سمعت هي ذاتها في أرجاء المظاهرات في بعض البلدان العربية مثل الشعب يريد إسقاط النظام وأن بعض النظم العربية في الأردن وسوريا قد ألغت الأسعار وخففت بعض السلع.. كما أن نظما أخري مثل النظام السياسي الحاكم في اليمن قد رفض التجديد والتوريث وأقسم قائده في اجتماع عام أنه سيكتفي بمدة رئاسته الباقية، وسوف يعلن عدم ترشيح نفسه بعد أن أمضي في الحكم أكثر من ثلاثين عاما.. كل ذلك- في رأيي يعني أن هناك صحوة في الشعوب العربية ليس بوسع أحد إطفاء جذوتها بعد أن اشتعلت وانتقلت من بلد إلي آخر ولعل ما حدث من مظاهرات في سلطنة عمان هو أكبر دليل علي أن أي بقعة في

العالم العربي لم تعد في مأمن من الثـورة العربيـة الكبـرى.. فبعـد أن ظنـت الـدول الغربية ظلما أن الشعوب العربية قد استكانت، وأن بعض الحكام العرب قد عاثوا في الأرض فسادا.. فإذا بالثورة العربية تقتلع البعض من جذوره وتلقي به في خارج الحدود مثلما حدث ويحدث في تونس ومصر.. فمنذ مدة طويلة لم يشعر الشـاب العربي أن مصاب تونس هو مصابه.. ومنذ وقت طويل كنا نظن أن ينـابيع القوميـة العربية قد جفت في صدورنا.. بل وصل الأمر بأحد أعداء الفكر العربـي أن أطلـق علي دعاة القوميـة العربيـة القـول: إنهـم قومجيـة.. امتهانـا لهـم عنـدما يشـبههم بالعربجية!! لم يعد يهم كثيـرا السـبب الـذي مـن أجلـه يـرتبط المصـري بـالليبي واليمني لكن ما يهم هو أن ما يحدث من ثورة هنا وهناك إنما تعلن شيئا واحدا هو إننا في الأصل أمة واحدة.. نشعر بآلام بعضنا البعض كما أننا نحلم بآمـال واحـدة بعد أن تحول نفر مـن الحكـام إلي اسـتعمار جديـد أو مـا يشـبه ذلـك.. فالقضـية الفلسطينية قد تحولت علي ألسنة بعض الحكام العرب إلي سبوبة!! أو سبب وجود رغم علم الشعوب العربية بأن هذه التجارة قـد كسـدت وأن أحـدا مـن الشـعوب العربية بل- وهذا هو الأهم- أن أحدا من الشباب العربي لم يعد يصدق مـا يقولـه هذا النفر من الحكام العرب!

وكلنا يذكر التقرير الذي أصدرته أوروبا حول ذات القضـية وقالـت أن فزاعـة حماس والإخوان المسلمين قد انتهت، وأنها عـلي اسـتعداد أن تجـري حـوارا مـع الجماعات المعتدلة من حماس، وقامت أوروبا بشيء من هذا.. كما تنازلت أمريكا عن دعمها للديمقراطية وتركت الشعوب العربية الحالمة ليفترسها حكامهـا عـلي اعتبار- وهذا خطأ منهجي اعترفت بها أمريكا لاحقـا- أن الحكـام العـرب أدري سكان مكة بشعابها!! ولاشك أن ما يفعله الزعيم الليبي وتنكيلـه بشـعبه هـو أكبـر دليل علي ذلك.. لقد جعلونا نكفـر بحركـة الشـعوب عامـة فكنـا إذا سـمعنا عـن تظاهرة مليونية كتلك التي حدثت في أوروبـا وأمريكـا وشـملت٧٠ مدينـة كبـري يرفض فيها المتظاهرون الحرب الأمريكية القذرة علي العراق كنا نخرج ألسنتنا من أفواهنا استخفافا، ولم نشعر بالشجاعة إلا عندما هرب زين العابدين بن علي رئـيس

تونس السابق كما تهرب الجرذان وتبعه رئيس مصر السابق والبقية تأتي!

لقد أخطأ بعض أذناب النظم السابقة عندما قالوا أن ما حدث في تونس ليس له علاقة بمصر.. وما يحدث في هذه الأخيرة ليس له علاقة بما يحدث في ليبيا أو اليمن.. الواقع أننا كلنا جسد عربي واحد، ولأمر ما رفع المتظاهرون صورا- ربما عن غير قصد- لعبد الناصر مفجر القومية العربية ولم يرفعوا صورا لزعماء آخرين كانوا من أنصار الإقليمية والتقوقع علي الذات! أيا كان الأمر، لقد أثبتت الثورة العربية التي فجرها الشباب أن العالم العربي هو كل لا يتجزأ وهو كالجسد إذا اشتكي منه عضو تداعت له باقي الأعضاء بالحمى والسهر! بقيت نقطة واحدة تصب في البئر العربية وهي الأمراض الاجتماعية مثل البطالة فهي عربية بامتياز حتى أن بعض القيادات العربية في بعض البلدان النفطية بدأت تفكر في صرف بدل بطالة للشباب امتصاصا لغضبهم وتقليدا لبعض الدول الغربية!

والسؤال الآن: مادام هؤلاء الحكام قد أمروا بأن تفعل الحكومات ذلك.. فلماذا سكتوا دهرا وتركوا البطالة تزحف إلي كل شبر وتطوي الآلاف بل الملايين من شباب الأمة العربية بين أسنانها! فهم في الأردن يتكلمون عن البطالة وفي ليبيا التي دفعت قياداتها لشهداء لوكربي نحو عشرة ملايين دولار لكل شخص! وفي الجزائر التي يقف شبابها علي الطرقات بحثا عن عمل ناهيك عن مصر التي تعشش البطالة في كل بيت فيها!

إننا نعيش- والحمد لله- عصر الشعوب العربية التي ظلت صامتة أجيالا عدة، لكنها اليوم تكلمت وكان كلامها أشبه بالزئير.. وليس بوسعها التراجع إلي الوراء فلقد انطلقت ثورتها.. ثورة الشعوب العربية الكبرى

الساكت عن الحق:

يحاول البعض القفز علي هذه الثورة وانتهاز فرصة حرية تكوين الأحزاب

لتشكيل حزب وقيادته باسم شباب ميدان التحرير مع أنه من جيل- عمريا- محسوب علي أجيال أخرى. باختصار لقد نبه البعض من الانتهازيين الذين شرعوا يخطفون الثورة لحساباتهم الضيقة.

الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر.. بات عليه أن يعود بمؤسسة الأزهر إلي سيرتها الأولي عندما كانت إسلامية وليس فقط مصرية.. وهي دعوات تعود بنا إلي زمن الإمام محمد عبده.. إذ بات الانتخاب وليس التعيين هو الأساس.. بل هو مطلب الشباب في ميدان التحرير في أكثر من موقع وأن يقترب شيخ الأزهر من الناس لا من الحكام من خلال المتحدثين الرسميين.. عليه أن يفعل ذلك أو أن يترك منصبه لمن يستحقه!

وعلي شباب التحرير أن يكفوا عن الاعتصامات والإضرابات فمصر اليوم أصبحت في حاجة ماسة إلي الاستقرار والاندفاع بسرعة إلي الأمام.. إن أهم شعار طربت له أذني هو: الشعب يريد أن تعود مصر للبناء.

مبررات حالة الاغتراب في مصر !

مردود أي عمل سياسي في العالم هو المواطن أو الشخص العادي ولذلك وضعت الدول ضمن معايير تقدمها- من عدمه- رفاهية هذا المواطن ومستوي دخله، وحجم المشكلات التي يعانيها.. وأحسب أننا لو طبقنا هذا المعيار علي المواطن المصري العادي لاكتشفنا عجبا!

وقبل أن أخوض في النتائج أريد أن أقول إن المواطن العادي الذي جعلته كتب السياسة معيارا هو ذلك الإنسان الذي حصل علي قدر معقول من التعليم الجامعي، وتسير حياته بشكل طبيعي (ليس فيها مرتفعات أو منخفضات) ولا تربطه بذوي النفوذ في المجتمع صلة من أي نوع، ويعتبره كتاب السياسة الشهير لأرسطو طاليس ملح الأرض الذي بدونه تتحول الأرض إلي خراب، فهو الموظف والفني، والمدرس.. حامل قيم المجتمع وحارس تراثه وأعرافه.

ولقد أدرك نفر من مفكرينا أهمية هذا المبدأ في العمل السياسي والاجتماعي أذكر منهم الراحل لطفي الخولي الذي كان الأول- ولعله الأخير- الذي جعل باب: حوار مع مواطن عادي من الأبواب الثابتة في مجلته- مجلة الطليعة التي كانت تصدر في سبعينيات القرن الماضي.. وكان قارئ هذا الحوار يقف مباشرة علي أحوال مصر دون رتوش أو تزييف لأنها تتأسس علي واقع يعيشه المواطن المصري العادي..

وأيا كان الأمر، فالمحقق أن مصر اليوم تختلف كثيرا عن مصر الأمس إلي حد أن المقارنة في بعض الحالات تكون ظالمة، فالتكنولوجيا بأجناسها المختلفة قد دخلت حياتنا وأحدثت- شئنا أم أبينا- زلزالا في بعض القيم التي تسيدت المجتمع ردحا طويلا من الزمن، وفرضت- في الوقت ذاته قيما بديلة، وليس بوسع أحد إنكار درجات التقدم التي قطعتها مصر في نواح كثيرة وانعكس ذلك بالضرورة علي مظاهر حياتنا داخل البيت أو في الشارع لكن لو سألنا المواطن العادي عن كل ذلك، وعما إذا كان يشعر بهذا الرقي الذي حققته مسيرة الحياة ـ في بعض جوانبها ـ سنجده يمط شفتيه في تأفف ولا مبالاة، وكأن شيئا لم يحدث!!

ولاشك أن هذا المواطن، لديه مبرراته، فهو وإن شعر بلمسات من تقدم ورقي في بعض المجالات، إلا أنه يشعر بالاغتراب في وطنه فهو عندما يستمع مثلا إلي مسئول في المحليات أو في الحكومة يجده يتحدث (لغة أخري) غير اللغة التي يفهمها.. ولقد حدث هذا بوضوح في مشكلة مياه الشرب التي انقطعت- في تزامن غريب- عن عدة قري في بعض محافظات مصر، وعندما ذهب هذا المواطن مع آخرين إلي المحافظ يشكو حاله، لم يجد منه غير الصلف والغطرسة، إلي حد أن أحد المحافظين هدد بطردهم جميعا من ديوان المحافظة!! بينما حملهم محافظ آخر مسئولية انقطاع المياه لأنهم- حسب فهمه- يستحمون أكثر من مرة في اليوم!!

وإذا انتقلنا إلي مجال التعليم فسنجد أن مساحة الاغتراب التي يشعر بها المواطن العادي تتسع دوائرها كثيرا.. فالتعليم المجاني أصبح كالعنقاء التي يسمع عنها ولا يراها وانتشرت المدارس الخاصة كالطفيليات، ومازال غول الدروس الخصوصية يهاجمه في الصحو والنوم.. وتصر وزارة التعليم علي إهدار المال العام في طباعة كتب مدرسية لا فائدة منها بسبب هيمنة الكتب الخارجية علي سوق التعليم في مصر.

ومما يزيده ألما- فوق ألم- أنه إذا جأر بالشكوى فلا مستمع، ولا مجيب، فالكتب المدرسية التي تبلغ تكلفتها مليار جنيه، تذهب مباشرة إلي بائعي اللب،

والترمس وأم الخلول..

وللإنصاف يجب أن نذكر أن المواطن العادي قد سكنه الاكتئاب الذي أصبح كظله لا يفارقه لأن التعليم الذي يرهق ميزانيته (المتواضعة) لا علاقة له بسوق العمل، والدليل علي ذلك أن أولاده- بنين وبنات- ينتهون من دراستهم الجامعية ثم لا يجدون إلا أركان البيت ملاذا يجترون فيها الأوجاع.. فالبطالة هي القدر المحتوم علي الجميع..

وإذا هرب المواطن العادي المسكين من واقعه الصعب وسلم نفسه- كما يفعل الكثيرون- إلي التلفاز، عله يجد بين برامجه ما يفرج عنه كربه.. ازدادت همومه، لأنه سيدرك أن هذا الصندوق السحري يتحدث عن أناس لا يعرفهم المواطن العادي لا من قريب أو من بعيد. فالأبراج السكنية تشق عنان السماء والتجمعات السياحية تمتد في عمق الصحراء، وشواطئ النيل تختفي تحت المربعات الأسمنتية، والجامعات الخاصة تملأ أرجاء مصر، ولا مكان للمواطن العادي في أي من هذه الأماكن.. فكأنها أنشئت لقوم آخرين لا يعرفهم ولا تربطه بهم صلة.. والنتيجة الحتمية لذلك هي أن يتعمق شعوره بالاغتراب.. المؤلم أنه لن يجد في المطبوعات التي تملأ الأرصفة(بين صحف ودوريات ومجلات) إلا ما يملأ نفسه يأسا وقنوطا، فالإعلانات عن(الفاكانس) في الساحل الشمالي، ومارينا، وبورتو مارينا وفي القرى السياحية الخيالية المنتشرة علي البحر الأحمر ثم عبر الأطلسي في نيس ومرسيليا ومونت كارلو، والريفيرا.. كل ذلك يجعله يتحسس في حسرة جيبه الشاغر إلا من ورقة صغيرة مكتوب عليها آية قرآنية يرطب بحروفها فمه الذي جف حسرة ولوعة من هول ما يري ويسمع..

هذا الشعور بالاغتراب الذي تجذر في نفس وجسد المواطن العادي جعله يفقد الإحساس بالحياة التي أرهقته إرهاقا شديدا بسبب متطلبات الأسرة والأولاد، والتي- يعلم الله- ليست بالأمر الصعب، لكن رقة حاله، وهوانه علي

نفسه وعلي الآخرين جعلته أضعف من أن يتحمل مسئولياته كـرب أسـرة (في أدني حدودها).

وهنا سيكون الأمـر مضـحكا (أو كوميـديا) إذا سـألنا المـواطن العـادي عـن إحساسه بالإصلاح الاقتصادي الذي تجري عجلتـه منـذ سـنوات في مصـر.. لأن إجابته ستكون بالقطع سلبية، ليس من قبيل العناد أو المكابرة وليس لأن الإصلاح لم يحدث وامتد إلي أكثر من مجال، ولكن لأنه بالفعل لم يشعر به، وإلا فما معني أن يكون هناك إصلاح ثم تذهب مياه الشرب فقط إلي المنتجعات السياحية وتنقطع ـ في الوقت ذاته، عن القرى والنجوع التي يسكن فيها.. ومـا معنـي أن يكـون هنـاك إصلاح ثم يتخرج ابنه من الجامعة، فلا يجد عمـلا (نظيفـا) وشـريفا يقتـات منـه ليستقل بمفرده ويخفف أعباء والديه ثم ما معني أن ترتفع أسعار الشقق والأراضي لتبلغ عنان السماء.. وما معني أن تباع مؤسساته الشعبية وبنوكه الوطنيـة، ليـدخل المستعمر ثانية (من الباب) ويتحكم مجددا في اقتصاد بلده.

* أخلـص مـن ذلـك إلي القـول إن حالـة الاغتـراب التـي يعيشـها المـواطن المصري العادي، تتعمق يوما بعد يوم، إلي حد أن الكثيرين باتوا يشعرون بأن مصر المحروسة لم تعد وطنـا لهـم، كمـا كانـت لآبـائهم وأجـدادهم وإنمـا نـازعهم في ملكيتها آخرون يزحفون عن عمد علي الأخضر واليابس فيها.

استراتيجية عربية للمياه.. متى وكيف؟!

ليس سرا أن نقول إن شعوب منطقة الشرق الأوسط تضع أيديها على قلوبها خوفا من اندلاع حروب حول المياه بسبب الزيادة الكثيفة في السكان، وسوء استخدام مياه الشرب، ودخول المياه كعنصر أساسى من عناصر التوتر الدولي. ومؤشرات ذلك أن سعر لتر ماء الشرب يزيد اليوم عن سعر لتر البنزين.!

ومما يزيد مساحة الهواجس في نفوس الكثيرين، أن حصة المواطن اليومية من الماء ازدادت في وقت تتحدث فيه بعض التقارير الدولية عن أن هناك نحو عشرة أنهار كبرى في العالم مهددة بالجفاف، من بينها نهر النيل الذي تشترك في مياهه عشر دول في القارة الإفريقية.

وتحدثت ذات التقارير عن السدود التى أكثرت منها الحكومات لتخزين أكبر قدر من المياه وبناء محطات الطاقة، وهو ما يؤدى إلي استنزاف الموارد المائية للأنهار. المثال الصارخ على ذلك أن إثيوبيا تضع خطة لبناء ٣٣ سدا على مجرى النيل.

وللإنصاف يجب أن نذكر أن بعض دول المنطقة- مثل مصر- قد أدركت في وقت مبكر خطورة دخول المياه معترك الصراع، فقد دعا الرئيس جمال عبد الناصر إلي عقد مؤتمر قمة عربى في القاهرة، وآخر في الإسكندرية عام ١٩٦٤، لمناقشة النزاع العربي- الإسرائيلي حول مياه نهر

الأردن عبر مشاريع تستهدف تحويل ٢٢٥ مليون متر مكعب من مياهـه. وبعـدها اندلعت حرب يونيو ١٩٦٧ قبل استكمال تلـك المشـاريع، لكـي يبقـى احتمـال نشوب حرب المياه في الشرق الأوسط قائما.

ويدعم ذلك أن معظم الأنهار التي تغذى المنطقة تأتى مـن خارجهـا وتـتحكم دول المنبع في مقنناتها- بينما الدول العربية تمثل المصب- ولعل أبرز مثـال عـلى ذلك هو السودان ومصر باعتبارهما دولتي المصب لنهر النيل.

والحق أن النيل الذي يهب الحياة لمصر والمصريين يثير عددا من القلاقـل في السنوات الأخيرة- ويكاد يمثل صداعا في رأس مصـر بسـبب تلـويح بعـض دول حوض النيل بطـرح قضـايا تتعلـق بإعـادة النظـر في الاتفاقـات الدوليـة المنظمـة للحصص المقررة لكل دول الحوض- وتعود في معظمهـا إلي فتـرات الاسـتعمار الأوروبى، وبسبب ما يتردد حاليا بشأن خصخصة مياه النيل أو تسعيرها وإقامة مـا يعرف ببورصات المياه.

وتدرك مصر التى تصل احتياجاتها الفعلية من مياه النيل إلي مـا يزيـد عـلى ٤٨ مليار متر مكعب خطورة هذه الأوضاع الخاصة بالعلاقات بين دول حوض النيـل وبعضها البعض. ولذلك تسعى إلي تهدئة الأجواء والاحتكام إلي منطـق المصـلحة المشتركة التى تجمع كل الدول المشاطئة للنيل، ثم الاحتكام إلي القـانون الـدولي الذي وضـع القواعـد المنظمـة للمصـادر المائيـة للأنهـار الدوليـة بشـكل عـام، والاتفاقات الدولية التي تنظم اقتسام مياه النيل بين دول حوض النيل العشر.

والأهم أنها تعي بشكل جيد وعميق- المشاريع التى تروجها بعـض الـدول في منطقة الشرق الأوسط، مثل إسرائيل، للتحكم في ميـاه النيـل، فقـد زعـم شـيمون بيريز في كتابه الشرق الأوسـط الجديـد، أن قضـية الميـاه تعتبـر دلـيلا عـلى مـدى الحاجة لإقامة نظـام إقليمـى يهـدف إلي التخطـيط وتنفيـذ مشـاريع تنميـة الميـاه وتوزيعها على أساس اقتصادي بأسلوب عادل ومؤتمن. وانطلق من هذه الرؤية إلي

القول بضرورة إنشاء هيئة إقليمية تشارك فيها جميع الأطراف المعنية بالنيل وتوزيع مياهه، مما يسهم- في النهاية- في تخفيف أسباب التوتر والعمل من أجل السلام!

ليس من شك في أن القرن الحادي والعشرين، سوف يشهد صراعا داميا حول المياه وخصوصا في منطقة الشرق الأوسط التي تعانى فقرا نسبيا في المياه ناهيك عن أن غالبية الأنهار الكبرى التي تجرى في أرضها كالنيل والفرات ودجلة تنبع من دول غير عربية. كما أن توسع التنمية وتزايد السكان واستصلاح الأراضي قد تشكل أعباء جديدة على هذه الموارد المائية المحدودة.

ولأن الإنسان- كما ثبت- بوسعه أن يبحث عن بدائل للطاقة فإنه غير قادر على العيش بدون مياه، فلقد استقر خبراء المياه في منطقة الشرق الأوسط على أجندة لإدارة السياسات المائية العربية وتشتمل على الآتي:

تنمية وتطوير قاعدة للمعلومات حول الموارد المائية العربية.

تشجيع البحث العلمي والتكنولوجي في مجال تنمية الموارد المائية والبحث عن بدائل جديدة وتوفير تقنيات أكثر تقدما وأقل تكلفة.

الاستخدام الأمثل للموارد المائية العربية المتاحة حاليا وتحرى قواعد الكفاءة الاقتصادية في استخدام الموارد الناضبة وخصوصا المياه الجوفية وتحديث نظم الري والزراعة.

توثيق عرى التعاون الإقليمي مع دول أعالي الأنهار العربية لتفادى المشكلات الناجمة عن التوزيع المتفاوت لحصص المياه وقطع الطريق على محاولات التسلل الإسرائيلي إلي هذه الدول (تركيا، إثيوبيا، أوغندا).

تنسيق المواقف العربية في المنظمات الإقليمية والدولية المعنية بالمياه واستثمار الوجود العربي في الاتحاد الإفريقي، ومنظمة المؤتمر الإسلامي للتأثير في مواقف دول الجوار ذات الصلة بالمياه العربية، لاسيما إثيوبيا وتركيا.

استحداث آليات جديدة سياسية أو قانونية لفض المنازعـات التـي تنشـأ بـين العرب ودول الجوار الجغرافي حول اقتسام الموارد المائية.

ويضاف إلي ذلك جملة من المؤشرات المصرية المهمة التي يتعين الاسترشـاد بها في قضية الصراع من أجل المياه:

١ - ضرورة إيجاد ثقافة مائية في المجتمع المصري، لأن مفهوم الأمن المـائي المصري لا يتعين إدراكه من جانب صـانعي القـرار فحسـب، وإنمـا مـن جانـب المجتمع المصري المستهلك للمياه في الأغراض المختلفة.

٢- إنشاء مجلس أعلى للسياسات المائية لمتابعة تطورات دول حوض النيل.

٣-إعادة النظر في سياسة مصر الخارجية تجاه دول حوض النيـل بإنشـاء إدارة خاصة لهذه الدول يطلق عليها إدارة مياه النيل تختص بقضية المياه فقط بـالتوازي مع عمل الإدارات الأخرى، سواء الاقتصادية أو السياسية وأن يكون في كل سفارة مصرية في دول حوض النيل خبير في شئون المياه.

٤- إنشاء معهد أو كلية لمياه النيل يدرس فيهـا الأفارقـة مـع المصـريين لإعـداد كوادر إفريقية متخصصة وهو ما يمثل أرضية مشتركة للتفاهم المستقبلي بشأن المياه.

٥- ضرورة متابعة كل ما يصدره البنك الـدولي والمؤسسـات الأخـرى بشـأن مفاهيم خصخصة وتسعير المياه وبورصات المياه، ويحسن إنشاء وحدة دراسات داخل وزارة الموارد المائية والري تختص بالمؤسسات الدوليـة ومواقفهـا تجـاه قضية المياه في حوض نهر النيل.

يبقى أخيرا أن نذكر أن الاحتمالات المتشائمة للصراع حول المياه في المنطقة العربية والشرق أوسطية واردة، وأحسب أنه لايمكن تفاديها إلا بإيجاد استراتيجية عربية للمياه تتبناهـا منظمـة إقليميـة متخصصـة تنـاط بهـا مسـؤولية إدارة الميـاه وتنميتها وتنسيق مواقف الدول ودرء أي خطر يهدد مستقبلهم.

جواز سفر ثقافي !

لمعت هذه الفكرة في رأس كاتب فرنسي يدعي تييري فابر وتنطلق من قناعة مؤداها أن الثقافة هي أصل الأشياء، وأن أي حراك في العالم منشؤه الأفكار والدليل علي ذلك أن أي عمل عظيم (أو خبيث!) كان في الأصل فكرة دارت في رأس أحدهم.. ولذلك أراد هذا الكاتب أن تعود عجلة القيادة إلي أصحابها بعد أن لاحظ أن المثقف قد تقاعس عن أداء دوره التنويري وتراجع إلي الوراء تاركا الساحة الفكرية والثقافية لرجال السياسة يحركون فيها (الأشياء والأحداث) كما يحركون قطع الشطرنج بأصابعهم.. واحتل المثقفون مقعد (التابع) الذي يسير معصوب العينين وراء السياسيين دونما رغبة في نقاش أو حوار أو جدل.

وفكرة جواز سفر ثقافي تأتي أساسا من قاعدة يرتكز إليها نفر من المهمومين برسالة المثقف التي تتجه إلي الإنسان- أي إنسان- بغض النظر عن لونه أو عرقه أو دينه والتي صاغها البعض- وهو علي حق- في مصطلح المثقف الكوني.. فالمثقف الأوروبي يجب أن يكون (مشغولا) بل ومؤرقا لما يحدث من إبادة للشعب الفلسطيني علي أيدي قوات الاحتلال الإسرائيلي، بنفس القدر الذي يكون مهموما فيه بالصراع بين جورجيا وأوسيتيا الجنوبية الذي حصد المئات وأعاد إلي الأذهان الصورة المقيتة للحرب الباردة بين القوي الكبرى عقب الحرب الباردة.. ثم إن

هذا المثقف (ذاته) يجب أن يكون معنيا بأوضاع مواطنيه في القارة العجوز، وكذلك بأوضاع المهاجرين لأنهم بشر ويهمه أمرهم..

وعلي الطرف الآخر، فإن المثقف في العالم الثالث يجب أن يكون مسكونا بهموم البشر في أركان الدنيا الأربعة.. فأحوال الناس في أمريكا اللاتينية، واستراليا، وشمالا في سيبيريا، وتركيا، وجنوب شرق آسيا.. كلها أمور يتعين أن تنعكس علي صفحة نفسه وضميره.. والثابت أن هناك من يميل إلي اعتبار هذا التصور شكلا من أشكال الفكر الطوباوي أو الخيالي أو لعله من مفردات المدينة الفاضلة التي حدثنا عنها الفيلسوف العربي الفارابي أو أفلاطون في جمهوريته التي لم تتحقق علي الأرض بعد.. ويرد المتحمسون لفكرة (المثقف الكوني) بقولهم، إن أحدا لا يختلف حول واحدية العالم، وتعددية العلوم، ووحدة البشر، وتنوع الأجناس البشرية.. وهي ذات العناصر التي تتأسس عليها فكرة المثقف الكوني، فلماذا لا نحلم بأن يصبح هذا النوع من المثقف واقعا ملموسا.. فضلا عن أن الثقافة هي السماء التي تظلل الجميع ولذلك تري في التنوع والاختلاف ثراء وفي التعددية زخما يضيف للجنس البشري ولا ينقص منه.

ولكي نصل إلي هذا الحلم الإنساني علينا أن نعمل جاهدين كي يستعيد المثقف مكانه وراء عجلة القيادة، وأن نسهل حركته، ونحرره من القيود التي تكبل فكره وتحول دون تنقلاته.. ومن هنا جاءت فكرة جواز سفر ثقافي يستخدمه المثقفون والعلماء والمفكرون في تنقلاتهم خصوصا في الأسفار التي يكون الهدف منها المشاركة في المؤتمرات العلمية والثقافية.. وبهذا المعني يلغي هذا الجواز الثقافي (مؤقتا) الجواز القطري الذي يحمله المواطن العادي ويكون ممهورا بأختام دولته.. لكن الجواز الأول يكون (عالميا) وقد يحمل - ضمن بعض الرؤى والتصورات - أختام منظمة التربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) باعتبارها الهيئة الدولية المهمومة بقضايا الثقافة والاتصال وزرع ثقافة (السلام وقبول الآخر) في عقول البشر.

ومما يرجح هذه الفكرة الطوباوية أن أحدا من المثقفين في العالم لم يثبت تورطه في عمل إرهابي، وأن الثقافة بمعناها الواسع ترفض التطرف والانغلاق والقطرية

الشوفينية، وتري أن المساواة بين البشر (حقوقا وواجبات) هي أبجدية التعاطي الصحيح مع قضايا الإنسان أينما حل أو ارتحل.. ناهيك عن أن الأزمات الخانقة التي تحاصر البشرية وتتسع دوائرها يوما بعد يوم تفرض بإلحاح أن يتحرك ذوو الرأي والبصيرة المتفتحة (وهم هنا المثقفون الكونيون) لتضييق مساحة هذه الأزمات والحيلولة- قدر الإمكان- دون تردي الأحوال، والانتصار للحوار ليكون بديلا عن سياسات القمع والنفي وإلغاء الآخر، والاحتفاء بمن يقول لا في إطار الإيمان بحق الإنسان في التعبير عن رأيه ضمن منظومة (الأنا والآخر) التي تمثل قاعدة (ومنطلقا) للثقافات والحضارات منذ فجر الإنسانية وعبر العصور والأحقاب الزمنية المتلاحقة.. وفي حال تحقق هذا الحلم سيشعر المثقف بأنه أصبح محط أنظار الجميع، وتتعلق به آمال المضطهدين والفقراء، والمهمشين، ودعاة الأمن والاستقرار في العالم، وسيلقي- والحال هذه- حفاوة واستقبالا في مطارات العالم بمجرد أن يبرز جواز سفره الثقافي.

وسوف تفتح له- ربما لأول مرة- صالات كبار الزوار تقديرا لدوره، وتسهيلا لتحركاته واقتناعا كاملا بالدبلوماسية الثقافية التي يمثلها ويقوم بها في ذات الوقت.. خدمة للإنسانية ورفعا للظلم الذي يقع علي بعض الشعوب أو الشرائح المجتمعية في هذه الدولة أو تلك.. إن رسالته- في هذه الحالة- ستكون أشبه بالرسالة السماوية التي لا تفرق بين أرض وأرض أو شعب وشعب وإنما تستهدف البشرية جمعاء.

وإذا تعمقنا أكثر في فكرة المثقف الكوني بجواز سفره الثقافي فسنجد أنفسنا قطعا أمام مؤتمرات وندوات تكون لتوصياتها سلطة وجوبيه نافذة، وأمام جولات مكوكية لمثقفين يحملون ذات الملفات التي يحملها وزراء خارجية الدول، ولذلك كانت اليونسكو علي حق عندما ناقشت هذه الفكرة في مؤتمر الثقافات علي ضفاف المتوسط وأوصت بأن يتم التنسيق بين وزراء الخارجية ووزراء الثقافة في العالم، وصولا إلي بلورة فكرة المثقف الكوني التي ستمر حتما عبر حل أكثر من إشكالية علي رأسها تعريف: من هو المثقف الذي يستحق أن يعبر حدود العالم بجواز سفر ثقافي دون أن يعترض طريقه موظف أمن أو جوازات أو جمارك..! وليس من شك في أن قضايا العالم الثالث ستفوز-

والحالة هذه- بنصيب الأسد من اهتمام هذا المثقف الكوني المنتظر أو المأمول.. وهنا تحضرني العراقيل التي وضعتها إسرائيل- مثلا- أمام المواطن الفرنسي العالمي جوزيه بوفيه- زعيم حركة مناهضة العولمة- عندما زار الأراضي الفلسطينية مع نفر من زملائه ليعلن تضامنه الفعلي مع المحاصرين الفلسطينيين في غزة.. وأظن أنه في حال إبراز جوازات السفر الثقافية فسوف يفسح الطريق أمامهم إلا إذا أصرت إسرائيل علي عنادها وانتهاكها الدائم لكل القوانين والأعراف الدولية.. وفي هذه الحالة، لن يفيد جواز سفر ثقافي أو دبلوماسي!

.. الشيء الآخر الذي يقفز إلي الذهن مباشرة إثر التفكير في هذه القضية، هو أن المثقف العربي سوف ينظر إلي فكرة جواز السفر الثقافي علي أنها (فانتازيا) أو رفاهية لا علاقة له بها من قريب أو من بعيد، لأنه حتى اللحظة يعاني سوء حاله في وطنه، ويحرم في أغلب الأحيان من الحصول علي جواز سفره كمواطن، وتحوم الشبهات حول تحركاته.. ويحارب في لقمة عيشه ما لم يتم(تدجينه) وإدخاله إلي الحظيرة الرسمية التي يضع حدودها ويرسم سقفها وزراء الثقافة العرب.. وعليه أن يعيرهم عقله.. فيفكر وقتما يشاءون في القضايا التي يريدون وإلا سيجد نفسه ملعونا أو علي الأقل مغضوبا عليه، ليجد نفسه في حال أشبه بسيزيف الذي غضبت عليه آلهة اليونان، وجعلته يمضي بقية عمره في دفع الصخرة إلي أعلي الجبل، ويتركها تتدرج إلي أسفل ليعود إلي دفعها حتى يموت.. والصخرة هنا هي لقمة العيش التي سيجد المثقف العربي نفسه مضطرا إلي البحث عنها ليقي أولاده شرور الجوع والعري..

.. تري هل سيتحمس وزراء الثقافة العرب إلي فكرة جواز السفر الثقافي هذه، وهل سيقبلون- بالأساس- منطق وفلسفة المثقف الكوني..؟ الإجابة صعبة بعض الشيء.. أليس كذلك؟!

مصر «ثقافة» وليست «جنسية»!

الأجيال المصرية المتعاقبة لا تعرف الكاتب والمفكر الجزائري مالك بن بني الذي تمر في هذه الأيام الذكرى المئوية الأولى لمولده. جاء هذا الرجل إلي دنيانا في عام ١٩٠٦ بعد عام واحد من رحيل الإمام محمد عبده صاحب المدرسية الإصلاحية الإسلامية الشهيرة.

وفي كل مرة تقع عيني على اسم مالك بن بني في كتاب أو على صفحات جريدة تقفز إلي ذهني مباشرة علاقة هذا الرجل الكبير بمصر، فلقد استوطنها سنين عددا وربطته صلة قوية بالرئيس جمال عبد الناصر، وتآلفت روحه مع أرواح مثقفي مصر في ذلك الزمان، ونشرت له دور النشر المصرية بعض مؤلفاته التي لا تزال تنبض بالحياة إلي وقتنا الحاضر خصوصاً كتابه «شروط النهضة» الذي يتحدث فيه عن نظريته الخاصة بالقابلية للاستعمار.

ولمن لا يعرف مالك بن بني أقول إنه أنهى دراسته الثانوية في الجزائر ثم عبر البحر متجهاً إلي باريس حيث درس فنون الكهرباء بكلية الهندسة.. ورغم ذلك اشتغل بالفكر، ووهب حياته في محاولة تجديد المسلمين، فوضع كتابه المعروف «الظاهرة القرآنية» كما توالت مؤلفاته تعالج قضايا الثقافة، ووجهة العالم الإسلامي، وسيطرت على عقله ووجدانه الفكرة الأفروآسيوية التي رأي فيها (طوق نجاة) ينقذ الأمة العربية من واقعها الصعب.

كما يذكرني اسم الرجل بدور مصر (الحاضنة) لكل المجددين والمبدعين العرب.. فلولا المناخ العقلي الذي وفرته أرض الكنانة لمالك بن بني، ربما لانطفأت شعلته أو لضاع في زحام الحياة الجزائرية التي كان الاستعمار الفرنسي يفرض عليها حصاره الخانق (جسداً وروحاً).

والثانية أن هذا المفكر الجزائري لم يكن يجيد اللغة العربية، إلا أن حياته في مصر، ومخالطته لأهلها، وقراءاته المستمرة في عقلها وفكرها، ساعدته في اتقان لغة الضاد حتى استطاع أن يحاضر بها، وكان ذلك شيئاً مستحيلا في بواكير حياته.. أما أكثر الأماكن التي كانت تسكن قلبه فهي أحياء الحسين والسيدة زينب.

ويروي أنه كان يعشق السير فيها متريضاً ومتأملاً بمفرده حتى إذا أعياه التعب، يجلس على مقهى شعبي يرقب منه حركة الناس من حوله، ويستمع - في عفوية - إلي أحاديث رواد المقهى التي كان يعتبرها محرضات على التفكير، وترمومتراً يقيس به هموم الناس وما يطمحون إليه.

بمعنى عام، لقد صقلت مصر مالك بن بني وصهرت وجدانياته بحرارة الحياة فيها وقادته إلي طريق الفكر الإبداعي الخلاق الذي يدور (من ألفه إل يائه) حول البناء الجديد للعالم الإسلامي.

لذلك، فاسمه يتصدر قائمة المجددين والمصلحين الذين ينتمون إلي رجال من وزن جمال الدين الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده.

ومما أذكره له حيرته عندما جلس في حجرته ذات مساء يبحث عن الإسهام الذي شاركت به الحضارة الإسلامية في بناء الحضارة الإنسانية، وبعد أن طافت عيناه على الأشياء من حوله، وتوجع قلبه لأن معظم ما يقتنيه هو من صنع الغرب المسيحي بدءاً بالبدلة التي يلبسها وانتهاء بالمصباح الكهربائي الذي ينير الحجرة مروراً بالتليفون والمذياع والتليفزيون..

وعندما رمقت عيناه (قُلة فخارية) في شباك الحجرة هتف في صوت مكتوم

وقال لنفسه: هل هذه القلة هي كل ما ساهم به المسلمون في صرح الحضارة.. إنه لأمر مؤسف!

ولعل هذه اللحظة التأملية هي التي جعلته ينذر نفسه وحياته لتجديد عقل الأمة من خلال أفكاره التي تنفض الغبار عن الشعوب وتدفع بها في أتون المنافسة والصراع واثبات الذات وتأكيد الكينونة.

مالك بن بني هو مفكر جزائري من الوزن الثقيل تركت مصر في عقله وقلبه علامات بارزة، ونهل هو من ينابيع ثقافتها الكثير.. والسؤال هو: لماذا لم يظهر مالك بن بني آخر منذ ١٠٠ عام؟ والإجابة: «لأن مصر الأمس كانت حاضنة لكنها اليوم طاردة.. وكأن مالك بن بني يقول إن مصر ثقافة وليست جنسية ترى ماذا جرى لمصر؟!

اللغة .. والذات العربية !

أمام الطفرة التي حدثت في الإعلام المرئـي في مصـر، خصوصـا بعـد الثورة، تفشي إلي حد مخجل النطق الخاطئ للغة العربية، وانقسم النـاس بين مؤيد ومعارض، فالبعض يري أن هناك عيوبا كثيـرة في اللغـة العربيـة وبات يتعين التخفيف من قيود اللغة نطقـا وكتابـة في ضـوء اللغـة الثالثـة المستحدثة التي ينطقها ويكتبها شباب اليوم..!

والبعض الآخر يحيل إلي زمن مضي فيتحـدث عـن اللغـة العربيـة في زمن الخليل بن أحمد، وأعترف بأن اللغة العربية مثقلة بهذا التاريخ إلي حد أن الكثيرين ذهبوا إلي أن التحرر في العروض بالنسبة للشعر هـو القاعـدة، وإلي ما سمي في الشعر مثلا الحداثة، وفي كل الأحوال لابـد مـن الحفـاظ علي لغتنا العربية التي هي عنصر أو مقوم أساسي مـن مقوماتنـا العروبيـة، لكن لا أحد ينكر أن الإغراق في تضاعيف هذه اللغـة بدروسـها البلاغيـة المختلفة، يؤدي إلي النفور منها، لكن وبالقدر نفسه لا أحد يقبل أن تنتهك هذه اللغة علي ألسن المذيعين والمذيعات صباحا ومساء.

صحيح أن اللغة العربية- كما قال طه حسين عميد الأدب العربي هي لغتنا.. ومن حقنا أن نضيف إليها، أو أن نحذف منها، لكن لا أحـد يوافـق علي النطق بهـا كيفمـا اتفـق عـلي غـرار مـا يحـدث اليـوم في الفضـائيات المختلفة.

لقد اهتممت بالموضوع وعدت لكتاب معارك أدبية لأنور الجندي، وتبين لي أن قضية اللغة العربية مثارة منذ زمن، فهناك قوم كانوا ينادون بالعامية، وقوم آخرون ينادون بالفصحى أو الحروف الهجائية الغربية، المؤكد أن الجميع كانوا ينطلقون من قاعدة أساسية هي أن إتقان اللغة العربية هو شرط أساسي للعروبة والإسلام.

أيا كان الأمر.. أن نصمت علي هذا الانتهاك الذي يحدث للغة العربية عبر الفضائيات لا يعني أن اللغة العربية صعبة، أو أن القاعدة التي تقول سكن تسلم!! هي الصحيحة بقدر ما يعني أننا لا نرشح في القضائيات سوي الفاشلين أو الفاشلات في اللغة، والعجيب أنهم يتقنون اللغات الأجنبية أو هكذا يتظاهرون!! المهم لغتنا يا قوم، فعلينا أن نتحرى النطق السليم، وإلا لضاعت لغتنا مع ما ضاع من أشياء هي من صميم ذواتنا العربية.

«أين العقل العربي» مما يحدث حولنا؟!

يشهد العالم حاليا واحدة من أصعب وأدق مراحله، فالعولمة التي ظن البعض أن التاريخ سيقف عندها، وأن العقل الإنساني سيطوي صفحة إبداعاته بعدها باعتبارها سدة المنتهي في التفكير العقلي. أقول إن هذه العولمة تحتضر وسوف تتحول حتما إلي جثة هامدة.

الأخطر من ذلك أن النظام الرأسمالي الذي تعتبر العولمة إحدي مراحله يتعرض اليوم إلي أعنف انتقادات من داخله.. خصوصا بعد أن تحول إلي نظام يؤوي المحتكرين، ويعلي من شأن المضاربات، وحول الثقافة إلي سلعة، والإنسان إلي تجارة.. والفكر إلي شكل من أشكال الفانتازيا.

.. والثابت أن ثمة تحولات كبري يقف العالم علي أعتابها وتتعلق بمختلف أشكال النشاط الإنساني.. إلي حد أن الثوابت قد أصبحت في مهب الريح.

ولأننا اعتدنا أن نكون مستقبلين للأحداث وما يتمخض عنها من نتائج، فالمحقق أن زلزال الأزمة المالية الذي هز أمريكا والدول الغربية ثم امتد ليشمل بقية الكرة الأرضية سوف يستتبعه زلزال في السلم القيمي..

فما كان يتحقق حوله إجماع في السنوات الأخيرة، لن يكون حاله كذلك في المرحلة المقبلة.. ولذلك لابد أن نتوقع انطلاق سلسلة من المراجعات للنجاحات والإخفاقات التي حدثت في العقدين الأخيرين

اللـذين توحشـت فيهمـا العولمـة إلي حـد بـات فيـه تسـليح الأخـلاق والقـيم والسلوكيات أمرا مألوفا.

وليس من شك في أن هذه المراجعات سـوف تطـال كـل شـيء بهـدف إعـادة اكتشاف العالم والإنسان.. باعتبار أن علاقة الثاني بالأول هـي عتبـة البدايـة في كـل أمور الحياة.

.. والمحقق أن الأجواء الثقافية والفكرية في الغرب قد استعدت لهـذه التحـولات، الجذرية التي ستعصف حتما بكل المعادلات الحاكمة لمنظومة الحياة الإنسانية برمتهـا فهناك من يتحدث عن ضرورة العودة للجذور مرة أخري، وإلي جانب آخرين يتحـدثون عن الشطط الذي لحق بمسيرة الفكر الإنساني في صورته الغربية..

وظهر مجددا فريق يدعو إلي هدم النظام الرأسمالي بقضـه وقضيضـه والبحـث عن نظام يكون أكثر عدلا وإنصافا للإنسان والمواطن.

.. وبين هؤلاء وهؤلاء ارتفعت أصـوات تحـذر مـن الكفـر بقـيم الرأسـمالية وتذكر أن هذا الزلزال الذي ارتجت له أوصـال المجتمعـات الغربيـة لا يعنـي أن الرأسمالية قد سقطت وإنما يعني أنها في حاجة إلي تقويم أو تصويب..

.. أيا كان آخر هذه الطروحات، فالثابت أنها حركت المياه الراكدة التي طالمـا طمست ملامح الفكر الإنساني الشامل والذي ظل يعمل- منقوصـا- منـذ غيـاب الفكر الاشتراكي وتقلصه داخل إمبراطوريته التي كانت لا تغيب عنها الشمس.

الفكر الغربي- حسبما يبدو لي- بات أكثر اسـتعدادا للتعامـل مـع نتـائج هـذا الزلزال بإيجابية. وبتنا نرصد حالة من حالات العصـف الفكـري، تمـلأ سـاحات البحث والفكر.

. والمؤلم أن العقل العربي لا مكان له وسط هذه الضوضاء وكأن مـا حـدث في الاقتصاد والسياسة- لا يعنيه وحسبه أنه ارتضي لنفسه أن يكون عالة عـلي حصـاد الفكر العربي.

ولا يهم إن كان سينعم بخيره أو يكتوي بناره، فالأهم بالنسبة لـه هـو أن يظـل غارقا في النوم وحالما..

جدل عقيم بين «عروبة» مصر وفرعونيتها

يؤلمني ويشقيني كثيرا أن أجد النعرات الإقليمية والفرعونية تعود من جديد لتملأ أرجاء مصر من حولنا وكأن العروبة رداء نلبسه صباحا ثم نخلعه ليلا وغاب عن بال الكثيرين أن مصر العربية هي الثابت الأبدي الذي لا يجدي معه سجال.

وإذا أضفنا إلي ذلك أن استدعاء هذا النوع من الحديث جاء في أعقاب مباراة لا تزيد مدتها على ٩٠ دقيقة أدركنا على الفور أن هناك شططا في معالجة الأزمة لأن حال هؤلاء المتحدثين عن الفرعونية أشبه بحال من فقأ عينيه بنفسه انتقاما من شقيقه الذي اختلف معه في الرأي.

والإنصاف يقضي بالقول إن الحديث عن الفرعونية في مصر هو حديث قديم جديد يقابله في الجزائر حديث عن الفرنسية «كفرا بالعروبة والعروبيين» وكلنا يذكر تجربة صاحب قصة زينب «محمد حسين هيكل» مع الفرعونية فلقد اعترف الرجل أن فكرة العودة إلي الجذور قد استهوته حينا من الدهر، وشرع بالفعل يكتب عن أحمس ورمسيس ونفرتيتي وحتشبسوت ودمج الصفحات تلو الصفحات في أمجاد هؤلاء وتاريخهم الذي لا يجادل أحد في أنه جزء أصيل من تاريخ المصريين لكنه اكتشف بعد سنوات أن أحدا لم يتجاوب مع ما كتب استقبل جمهور القراء كتابه «من وحي محمد» الذي قيل إنه طبع منه عشرات الطبعات في وقت

وجيز، وعاد عليه بربح وفير بني به بيتا كبيرا في صحراء مصر الجديدة وقتئذ!

وخلص محمد حسين هيكل إلي أنه قد أخطأ عندما ظن أن الفرعونية بكل رموزها يمكن أن تكون بديلا عن الفترة الإسلامية بكل ما تعنيه من ثقافة وفكر وفلسفة وانتهى بالقول إن الفرعونية هي أحجار ميتة «لا روح فيها» بينما مصر الإسلامية نور وإشعاع وحضارة وحياة تضج بالحركة والنشاط.

ليس من شك أن المتشدقين بالفرعونية اليوم لو كانت أتاحت لهم ظروفهم التربوية والعلمية أن يقرؤوا هذه التجربة التي عاشها واحد من أعلام النهضة المصرية، لما أعطوا لأنفسهم الحق في أن يملؤوا الدنيا ضجيجا عاشها بحديث قديم عن مرحلة تاريخية لا حياة فيها.. ناهيك عن أن هناك حضارات أخرى مشابهة كالحضارة الآشورية والفينيقية ولم يحدث أن غلُب أبناؤها رموز هذه الحضارة على المرحلة الإسلامية كما يحاول- عبثا- نفر في مصر.

وقديما أو ربما من جانب آخر انطلقت دعوات تستهدف عروبة مصر ولكن عبر بوابة اللغة العربية فخرج علينا من يطالب بكتابتها بالحروف اللاتينية ومن يتحمس لكتابة العامة ونخسر لغة القرآن عيانا جهارا لكن ذهبت هذه الدعوات أدراج الرياح وبقيت العروبة و «اللغة العربية» شامخة كالجبال.

ثم علينا أن نتساءل ماذا سيبقى لنا إذا تركنا لغة الضاد وثقافتنا وتاريخ العرب وانتصارات وهزائم المسلمين.. وطوينا صفحة مفكري الإسلام وفلاسفته أمثال ابن سينا والفارابي والكندي وابن خلدون وابن رشد وصولا إلي الشعراء المحدثين أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم والمفكرين والأدباء أمثال عباس العقاد وطه حسين، بل إن الأخير سيتعين علينا أن نغير صفته إذ لم يعد وفق هذه الدعوات الإقليمية والقطرية الضيقة بالإمكان تسميته بعميد الأدب العربي وكذلك توفيق الحكيم لن يكون اليوم عميدا للمسرح العربي.

إنه الخواء الذي سيعم حياتنا وهي حياة التصحر التي حذرنا منها فيلسوفنا

الراحل زكي نجيب محمود الذي وجد أن لدى البعض هواية اقتلاع الأشجار الباسقة في حياتنا الفكرية والثقافية!

إن عروبة مصر ليست ثوبا مزركشا نلبسه حينا من الدهر ثم نلقي به في سلة المهملات أو نقذف به على قارعة الطريق.. إنها الجسد والروح معا ولا مجال للحديث عن شيء آخر.. بل إن الريادة التي حققتها مصر باقتدار وعبر المد الثقافي المصري هي في الأصل ريادة عربية وليست فرعونية.. وكتابات عباس العقاد التي ساعدت في نجاح ثورة التعريب في الجزائر، لم تكن مكتوبة بالهيروغليفية وإنما بلغة القرآن..

ويروي أن إسلاميات العقاد كان يتلقفها الشعب الجزائري إبان ثورته ضد الاحتلال الفرنسي، وخصوصًا سلسلة العبقريات ويقرؤها بنهم شديد، بل كانت صلته المباشرة بالدين الإسلامي الحنيف، لذلك كان الفرنسيون يفرضون غرامات مالية ضخمة على كل من تضبط معه هذه المؤلفات.

وظل الأزهر الشريف يشع بنوره (؟؟؟) والديني على كل الدول العربية والإسلامية وخصوصا في المغرب العربي، ولم يكن يرى أية غضاضة في أن يتولى مشيخته عالما تونسيا هو الخضر حسين وأن يتولى منصب قاضي القضاة في مصر تونسي آخر هو عبد الرحمن بن خلدون صاحب المقدمة الشهيرة واستقبلت مصر مفكرا جزائريا من طراز فريد هو الفيلسوف مالك بن بني الذي ترك علماء الأزهر بصماتهم الفكرية على حياته وكان من ثمرات هذه المرحلة الأزهرية كتابه الأشهر «الظاهرة القرآنية» الذي ترجمة إلي اللغة العربية الدكتور عبد الصبور شاهين.

أريد أن أقول إن هذا الحضور المصري في العالم العربي حضور عربي بلغة الضاد أولاً، أما الفكر العروبي فكلنا يعرف أن مصر كانت قلبه النابض- ولا تزال- وهو قدر وليس اختياراً.. ولئن كان البعض يتنادى بين وقت وآخر بالنكوص عن العروبة سواء في مصر أو في الجزائر وبعض الدول العربية الأخرى

فلأننا أهملنا لعقود متتالية تربية النشء العربي على الانتماء إلي فكرة القومية العربية التي ملأت حياة الأجيال البعيدة فكرا وطموحا وثقة.

الأخطر هو أن كبار المفكرين والمثقفين قد تخلو عن دورهم التنويري وتركوا النشء نهبا لأفكار واردة من هنا وهناك تحرض على كراهية الآخر، والانكفاء على الذات.. وقد ساعدت ثورة الاتصالات في ذلك فبات صغار الفنانين، والفتية الصغار من المدونين هم الذين يرسمون سياسات الدول، ويضعون الخطط وكلنا يعرف أن التهييج والاستعداء والتربص قام هؤلاء بالجزء الأكبرِ منه وتولى أمر الجزء الباقي نفر من مقدمي البرامج الحوارية في الفضائيات الخاصة وكانت النتيجة أن تم تغييب الوعي لدى الشباب والتعتيم على ثقافة سياسية هي في الأصل إن لم تكن غائبة فه شاحبة ولا ملامح لها.

وهكذا وجدنا أنفسنا جميعا نجني الحنظل المرّ ونترك سفاسف الأمور تتوحش لتلتهم جسد المارد العربي الكبير لكن هيهات!

مصر باقية وكلهم زائلون ..

لا يزال وقع هذه الكلمات يرن في أذني رغم أنني سمعتها لأول مرة منذ ما يقرب من عشرين عاما علي لسان شيخ المستشرقين الفرنسيين جاك بيرك الذي رحل عن دنيانا في مثل هذه الأيام قبل ثلاثة عشر عاما وكان من المتيمين بمصر التاريخ، والحضارة، والدور كتب لي ذات مرة يقول:

إن مصر قد تفقد عبر مسيرتها التاريخية أشياء كثيرة، لكنها أبدا لن تسقط، وأضاف: دعني أكرر ذلك الآن وأشدد عليه عن اقتناع وحب، فمصر بلد عريق نشأ أساسا نتيجة حوار جاد وعميق بين الأرض والتربة المصرية من ناحية، وبين كل المؤسسات التي ارتفعت فوقها من ناحية أخري.

وجاك بيرك لمن لا يعرفه- هو صاحب أكثر من مؤلف تحتل مصر فيها مكانة سامية مثل مؤلفه حديث الضفتين الذي يجعل مصر حجر زاوية في فكرة المتوسطية ويلتقي فيه مع عميد الأدب العربي د. طه حسين حول حوض البحر المتوسط الذي يتميز بثقافة خاصة به.

والأهم أن هذا المستشرق الفرنسي الكبير كانت تربطه صلات قوية برجال الفكر والثقافة في مصر، ولقد عمل مرتين فيها الأولي في جامعة القاهرة وأدخله طه حسين ليكون عضوا في مجمع الخالدين (مجمع اللغة

العربية) والثانية في مركز سرس الليان بمحافظة المنوفية- موفدا من منظمة اليونسكو، ويعترف بأن أرض مصر هي التي ألهمته نظريته الشهيرة الخاصة بالأصالة والمعاصرة، ويروي أنه التقي بالرئيس جمال عبد الناصر، كان ذلك في عام١٩٥٥- وتحدث معه في أمور كثيرة من بينها الثقافة (الفكر والأدب)، ويروي أن عبد الناصر في إحدي خطبه استخدم مصطلح الأصالة والمعاصرة وكان ذلك مصدر دعابة إذ اتهم بعض الأصدقاء جاك بيرك قائلين له: أنت إذن الذي كتبت خطاب عبد الناصر! والأهم أن مأثرة جاك بيرك الخالدة هي ترجمته الصادقة لمعاني القرآن الكريم، تلك الترجمة التي أمضي فيها ما يقرب من عشرين عاما.. ويؤمن بيرك بأن النص القرآني المقدس يشتمل علي كلمة الأولين والآخرين ولذلك يري أن من حق شعوب الأرض أن تعرفها وتهتدي بها لذلك أقدم علي ترجمة المعاني لأن النص القرآني لا يجب أن يترجم. ولقد سلخ جاك بيرك من حياته ثماني سنوات أخري كتب فيها٥٨ صفحة ضمنها بعض آرائه في كلمة القرآن الكريم والرسالة الإسلامية وصاحبها، ولم يشأ أن يضعها في مقدمة الترجمة، كما هي العادة في مثل هذه الأمور ـ ورأي أن تكون تذييلا! وعندما سألته عن سبب ذلك أجاب: لأن كلام الله لا يجب ألا يكون مسبوقا بكلام بشر!

ولقد عومل جاك بيرك بقسوة في فرنسا بسبب هذه الترجمة التي كانت ولا تزال حديث الناس لنزاهتها، وصدقيتها وموضوعيتها، فيذكر أن التليفزيون الفرنسي وتحديدا أشهر برامجه الثقافية آنذاك وكان يعرف باسم(إكس ليبيريس) كان حدد معه موعدا لمناقشة ترجمته لمعاني القرآن الكريم ثم عاد فألغي الموعد إلي أجل غير مسمي وكذلك فعلت معه صحيفة لوموند. بينما خصص التليفزيون حلقتين متتاليتين للحديث عن ترجمة سيئة صاحبها يدعي أندريه شوراكي وهو يهودي صهيوني كان يعمل عمدة للقدس! كما احتفت الصحف الأخرى بترجمة شوراكي حفاوة بالغة ونشرت عنها أكثر من مرة وسط إهمال تام لترجمة جاك بيرك، والإنصاف يقضي بأن نذكر رأيا للفيلسوف المصري الراحل عبد الرحمن بدوي في ترجمة شوراكي يقول: إنني أراها وصمة عار علي الترجمة والمترجمين في كل زمان

ناهيك عن أنها مليئة بالاعتداءات الصارخة علي قدسية النص القرآني. فشوراكي استوحي معانيه ومدلولاته من ألفاظ حسية فكانت النتيجة أن امتلأ النص المترجم بتعبيرات فاضحة.. فكلمة الرحمن علي سبيل المثال قد اشتق معناها من كلمة رحم وكذلك كلمة الحمد قد رجع بها إلي أصل (فعل الرغبة).

والغريب أن جاك بيرك الذي يري عبد الرحمن بدوي أنه محب للعرب والإسلام وأمضي نحو ٥٠ عاما من عمره دارسا ومنقبا في تراث العرب قد تعرض لحملة شرسة قادها الإعلام الغربي وابتلع طعمها المدسوس الإعلام العربي وأصبح الرجل- بين عشيه وضحاها- مستهدفا من هنا وهناك لا بر يقيه ولا بحر، وعندما أرسل نسخا من ترجمته إلي عدد من دول العالم الإسلامي جاءته ردود من إندونيسيا وإيران والفلبين ورجال دين مسلمين في الجزائر والمغرب، وفرنسا إلا مصر وأزهرها الشريف مما أحزنه حزنا شديدا سيما وأنه يقر للأزهر بدور الريادة، وبأنه صاحب رؤية إسلامية هادئة ومعتدلة ووسطية.. ولقد قامت قيامة البعض ضده واتهموه بتهم كثيرة لم يغضبه منها سوي اتهامه بأنه عدو الإسلام. وأذكر أن الرجل كان يبكي بكاء مرا ويهتز جسمه اهتزازا بينما دموعه كانت تهطل كالمطر ويقول في صوت تخنقه العبرات: لم أكن في يوم من الأيام إلا محبا للإسلام ومعجبا بنبيه الكريم، الذي أراه أشرف المرسلين قاطبة من لدن الله سبحانه.. ثم استطرد يقول: لأن ترجمتي لمعاني القرآن الكريم لم تلق ما تستحق من اهتمام، فسوف أوصي زوجتي أن تضع معي في قبري نسختين: الأولي للقرآن الكريم باللغة العربية، والثانية لترجمتي لمعاني النص القرآني.. لكي ألقي بهما وجه الله! وكان بيرك- يرحمه الله- يري أن العالم العربي والإسلامي يعيش واحدة من أحط مراحله التاريخية، ويذهب إلي أن العرب في الدرك الأسفل، وهم الذين قذفوا بأنفسهم إلي هذه المكانة الدنيا.. ويقول: لقد فقد الأصدقاء العرب خاصية التمييز، فلم يعد بمقدورهم التمييز بين العدو أو الصديق ويراهم أشبه بشخص يقف علي شجرة بينما يقوم بقطعها بآلة حادة.

قليلون هم الذين يعرفون أن الهم السياسي العربي كان يملأ عقل وقلب جاك بيرك فهو الذي كتب ذات مرة في صحيفة لوموند يطالب العالم بوقف إبادته للشعب العراقي في أزمة الخليج الأولي واتهم أمريكا بأنها تريد القضاء علي مسلمي الشرق.. ولم ينقل بيرك يوما في كل ما ينقل عن قادة إسرائيل بشأن السلام وكان يؤكد مرارا وتكرارا أنهم اختاروا أن يتحدثوا عن سلام أجوف، لكنهم لن يمارسوا فعل السلام يوما..

ومما ذكره في حواراته أن أبناء صهيون لن يسمحوا بإقامة دولة فلسطينية.. وكان الأول الذي تحدث عن محمية فلسطينية لا جيش لها ولا قوات، وحسبها أن تكون مكانا يؤوي ما تعتبرهم إسرائيل خارجين علي القانون ليكون كل دور السلطة الفلسطينية هو القيام بالحراسة لحفظ أمن إسرائيل لذلك ناصبه اليهود العداء واعتبروه حشرة سوداء يجب التخلص منها.. وأشهد أن الرجل (جاك بيرك) قد رحل عن دنيانا وفي الحلق غصة لأنه لم يفهم كيف نترك الآخرين يعبثون بنصوصنا القرآنية المقدسة وكأن شيئا لم يكن بينما أقمنا الدنيا ولم نقعدها ضده مع أنه كان يرسم علاقته بالإسلام (في صورة الضيف) ولم يتجاوز حدود هذه العلاقة عكس ما فعل الآخرون الذين دسوا للإسلام وأهله.. ومات الرجل وهو علي يقين بأن الغرب يضمر كل الشر للدين الإسلامي والذي سيجعله عدوا بديلا عن الشيوعية.. وهو ما حدث فعلا لا قولا.

والثقافة المصرية أيضًا

لا أحد ينكر أن الثقافة المصرية كانت في الأيام الخوالي من الأدوات الناعمة- إن صح التعبير- فطه حسين لم يكن عميد الأدب المصري، وكذلك توفيق الحكيم لم يكن عميد المسرح المصري، أما عباس العقاد فكان يعرف بأنه عملاق الأدب العربي.. ولقد نشأت في جيل اعتاد أن يجد مصر في المقدمة، لكن المؤلم أن هذه المقدمة ظلت تتراجع وتتراجع حتى أصبحت في المؤخرة.. والسبب أن أمر الثقافة والمثقفين قد أوكل إلي شخص لم يقرأ كتابا واحدا.. وأذكر أن عبد الرحمن الشرقاوي يرحمه الله قد اعترض عندما تولي فاروق حسني أمر الثقافة، أما الفيلسوف الراحل زكي نجيب محمود فلقد اعتبر أن اختيار هذا الشخص هو اختيار خاطئ، ورفض أن يحييه أو أن يشد علي يديه.. وفضل أن يجتر أحزانه وحيدا!..

لكنني وبصراحة أنتهز فرصة ثورة٢٥ يناير وما أفرزته من مناخ حري علي حد قول أحمد لطفي السيد- أو ليبرالي يساعد علي التفكير في حرية تامة ودون قيود، وأتساءل عن حجم الميزانية التي أنفقها وزير الثقافة السابق (فاروق حسني) عندما فكر في أن يتولي أمر اليونسكو فهزمته المديرة الحالية شر هزيمة.. والحق أقول إنني في كل مرة أري فيها فلاحا مصريا تفتك به البلهارسيا أو عاملا متواضعا تهتك بدنه فيروسه الملاريا.. أقول إن فاروق حسني وزير الثقافة السابق هو السبب.. لأن هؤلاء دفعوا

الضرائب.. وأخذها فاروق حسني لينفقها علي الجالية اليهودية في فرنسا والعالم.. وأذكر كما يذكر الكثيرون أن الرجل ظل يجوب الدنيا ويملؤها زورا وبهتانا لكي يحصل علي أصواتهم في الانتخابات.. بل إنه حول ميزانية وزارة الثقافة لينفق منها بغير حساب! ثم تكون الهزيمة النكراء له ولمصر، ويخرج علينا رئيس الدولة (السابق) بتصريح ظل فاروق حسني يلوكه ليل نهار، وهو أن ارم وراء ظهرك! هذا ما قاله الرئيس السابق للوزير السابق، وكأن أموال المصريين لا تساوي عنده شيئا.. وكأن الفلاح الذي مات من البلهارسيا والعامل الذي هلك من الملاريا لا يساويان شيئا!

ثم سمعة مصر- الدولة العظيمة- لا قيمة لها.. فرئيس الدولة قد قال لفاروق حسني ما قاله استخفافا وترويحا، وكان الأولي أن يخاطب الشعب.. لكن لأن هذا الأخير لا يساوي شيئا فقد اشتري رئيس الدولة السابق خاطر الوزير السابق.. ثم لا شيء بعد ذلك!

فمصر العظيمة بشعبها لا تقبل أن تهان.. أما رئيس الدولة السابق فقد قبل الإهانة.. وبينما ينشغل الناس بتجميد أرصدة سرور وعزمي، نجد أن أحدا لم يسأل هذا الوزير عن جملة ما أنفق طلبا لموقع ليس له! والأخطر من ذلك أن الرجل كان في عداء مع الشعب المصري معتمدا علي دعم زوجة الرئيس له.. فقتل دون أن يبالي شهداء مسرح بني سويف، وعندما واجهه البعض لجأ إلي زوجة الرئيس واتهم الدكتور مصطفي علوي بالقتل، وكاد حبل المشنقة يلتف حول عنق علوي لولا بعض من لطف ربك.. وكلنا يذكر موقفه المذري للحجاب وإصراره علي الخطأ معتمدا مرة أخري علي دعم الرئاسة، مع أن الصحف الأجنبية قد توقعت رحيله! لقد مكث الرجل (فاروق حسني) مايربو علي ربع قرن في موقعه دون أن ينجح أحد في النيل منه ومن قصره المنيف في منيل شيحة، وبرغم تورطه في زهور الخشخاش وضياعها إلي الأبد.. ومسؤوليته عن تغييب المثقفين حتى دخلوا جميعا الحظيرة علي حد قوله، وباتت الثقافة شيئا مدجنا وألعوبة في يد فاروق

حسني يلعب ويلهو بها أني شاء، بدلا من الطرب عندما نستمع إلي أخبار الأسرة التي حكمت مصر ثلاثين عاما.. علينا جميعا أن نسأل فاروق حسني: من أين مول معركته الانتخابية، ومن أين أنفق علي العشوات التي أقامها طوال الليل لمدعويه من كل الدول؟.. وبماذا كان يرد عندما كان يري المدعوين يضحكون سخرية منه ومن مصر التي كان يحكمها رجل وأسرته من دون الجميع..؟ إن الرجل كان ينفق ببذخ كما قالت ليبراسيون الفرنسية دون أن يسأله أحد من أين ينفق كل هذه اليوروات.

إن إقناع فاروق حسني بأنه مرشح العرب في معركته باليونسكو هو أمر يفوق الوصف.. لأنه كان مرشح عائلة مصرية واحدة، وليس مرشح العرب- كل العرب- كما كان يزعم، قبل الرجل كان بوسعنا أن نتحدث عن دور ريادي مصري.. أما معه خصوصا أنه ظل في موقعه ربع قرن، فمصر أصبحت في أسفل سافلين، فلا ريادة ولا قيادة.. ولا يحزنون!! لقد أصبحت الثقافة مجرد سلعة في يد وزير ثقافة مصر لا يرث المال من ورائها سوي أسرة الحاكم.. كما أصبح المثقفون مجرد أرزقيه يبحث كل منهم عن مجلة يعمل بها في الداخل أو الخارج، كما فقدت مصر رونقها وأصبحت مجرد دولة بين الدول لا ثقافة عندها ولا رسالة أو دور.. لقد تم مسخ مصر، فأصبحت أصغر الدول تفوقها في كل شيء.. وأصبحت عددها.. رؤيتها متدنية للأشياء من حولها، والسبب هذا العبقري الفنان الذي شاءت الأقدار التعسة أن يتولي أمور مصر الثقافية، فهبط بها إلي أسفل سافلين!

ثقوب في الذاكرة العربية

يبدو أننا، فعلا لا قولا، شعوب «عربية» بلا ذاكرة، فالمشاهد التي تتكرر أمام أعيننا اليوم من زيارات مكوكية، سواء لوزيرة الخارجية الأمريكية، وجورج ميتشيل المبعوث الأمريكي السابق لمنطقة الشرق الأوسط، تتشابه كثيرا مع زيارات سابقة للسيدة كونداليزا رايس وزيرة الخارجية السابقة وعدد من مساعديها، خصوصا ديفيد ووليش الذي كان «معنيا» بمنطقة الشرق الأوسط.

والأغرب هو أننا لا نزال ننتظر من هيلاري وميتشيل نتائج إيجابية لزياراتهما المتكررة، مع أننا لم نحصد سوي الحنظل من زيارات من سبقوهما، والسؤال الآن هو: هل العيب فينا أم في هؤلاء الأمريكان الذين يهبطون علينا في الوقت الذي يحددونه، ثم لا شيء يحدث بعد ذلك ونظل في حالة ابتهاج غير مبرر، وتفاؤل لا معني له منذ اللحظة التي يعلن فيها جورج ميتشيل أنه سيأتي إلي المنطقة، ثم يصل الرجل ويرسم علي شفتيه أوسع ابتسامة، ويعطي تصريحات مطاطة لا نعثر فيها علي شيء، ثم يتنقل بين تل أبيب ورام الله، وقد يزور هذا البلد العربي أو ذاك، وإذا سألنا أنفسنا ما هو الحصاد سنجده صفرا!

ما اعتقده جازما أن الأجندة الأمريكية لا مكان فيها للشرق الأوسط، فأحداث إيران، وتحديدا الملف النووي للأخيرة، تشغل الجزء الأكبر في

صدر هذه الأجندة، خصوصا إذا وضعنا في الاعتبار تراجع أوباما عن وعوده الخاصة بوقف مبدأ الاستيطان الذي فرحنا له وأقمنا الأهازيج في مكان، وأصبح كل دور جورج ميتشيل هو إقناعنا بعدم جدوى التمسك بهذا المبدأ.

والشيء الآخر الذي تتكفل به السيدة هيلاري كلينتون، في إطار توزيع الأدوار مع ميتشيل، هو حديثها المتعمد عن عدم حيادية تقرير جولدستون واعتباره منحازا للفلسطينيين علي حساب إسرائيل.

نحن إذن أمام جملة تراجعات تعرف الذاكرة العربية مثيلاتها عندما وعد الرئيس الأمريكي السابق جورج دبليو بوش بإقامة الدولتين مع حلول عام ٢٠٠٥، ونذكر أننا فرحنا (كالأطفال!) وظللنا نحصي الأيام والأسابيع والأشهر انتظارا لحلول عام ٢٠٠٥، لكن شيئا ما لم يحدث، وكذلك انتظرنا عام ٢٠٠٨ بعد ذلك، وأخذنا نتلفت يمينا ويسارا لعلنا نجد دولة فلسطينية بحسب الوعد الأمريكي، ولم نتردد في الدوران حول أنفسنا، وقبل أن نصاب بغيبوبة، من شدة الدوران، وجدنا أنفسنا نترنح من جديد لكن، هذه المرة، بين أوباما وهيلاري، وميتشيل. إنها مسرحية هزلية لا يصدقها غير العرب!

السلام الضائع

في كل مرة أستمع فيها التي تصـريحات أمريكيـة أو أوروبيـة أو حتـى عربية أتذكر- على الفور- الحكمة المأثورة التي تقول إذا أنت كررت فعل نفس الشيء لن تحصل إلا على نفس النتيجة! وهو مـا يعنـي أن الحـديث الذي طال واستطال منذ أكثر من ثلاثين عاما عن المفاوضات مع إسرائيل لن يؤدي إلا لنفس النتيجة وهي لا شيء.

والسبب هو أن الأطـراف المختلفـة التـي تهـتم بالعمليـة السـلمية في منطقة الشرق الأوسط لم تقدم شيئا جديدا ضمن معطيات القضية، لـذلك لم تتغير النتيجة.. ولم نخرج منها إلا صفر اليدين!

وهـذا معنـاه إن مـا نسـمعه مـن كونـداليزا رايـس وزيـرة الخارجيـة الأمريكية هو نفس الكلام والتصريحات التـي سـمعناها قبـل ذلـك مـن سابقتها.. ومن جيمس بيكر، وصولا إلي أشـهر وزيـر خارجيـة في أمريكـا وأقصد به هنري كيسنجر المهندس الأول لهذه المتاهة- متاهة السـلام- التي لا سقف ولا قاع لها.

ومنذ عصر كيسنجر والأشياء ذاتها تتكرر بحذافيرها والشيء الوحيـد الذي تغير هو الأشخاص.. لكن الحديث العقـيم عـن السـلام والأمـن، والاستقرار، والعدل، والحقوق.. هو أشبه بحديث الإفك..

وبالتـالي فـلا أمـل هنـاك في نتيجـة مغـايرة إلا إذا حـدث تغييـر أو تبـديل في المدخلات..

والشيء الآخر الذي يحضرني الآن هو أن رجال السياسة يقولـون: أن النتيجـة التي تتكرر تفرض إعادة النظر في الطروحات التي تؤدي إليها. بمعنى أن ما تقولـه هيلاري كلينتون كنا سمعناه وحفظناه قبلا ولـذلك فـلا جـدوى مـن التفـاؤل أو الاستبشار خيرا..

وفي ذات الوقت يتعين البحث عن بديل آخر غير هذا الحديث المعاد والمكرر عن مفاوضات هي أشبه بالرواية العالميـة الشـهيرة التـي تحمـل عنـوان: بانتظـار جودو فالكل يعلق الآمال على عودة جودو، وتوقفت المشكلات بل والحياة كلهـا إلي أن يعود هذا الـ «جودو».. وبعد مرور عشرات بل مئات وآلاف السـنين وهـذا هو الجانب العبثي في القضية- لم يأت جودو ولم يكف الناس عن انتظاره.

وجودو الذي أعنيه هنا هو السلام الآمن والعادل في الشرق الأوسـط.. الكـل يتحدث عنه، والكل يخطب وده، وينتظره في لهفة، لكنه لم يأت ويبدو أنه لـن يـأتي قط والسبب هو أننا لم نغير طريقتنا في التعاطي معه..

فعلينا أن نبحث عن طريقة أخرى غير طريقة الانتظار.. وإلي أن يحدث ذلـك، وتحين هذه اللحظة البعيدة والمستحيلة، فكل شيء سيظل ثابتا على ما هو عليه.

أوهام الريادة المصرية

أود أن أتوقف لحظات أمام أكلاشيه «الريادة المصرية» الذي روج لـه المروجون سنين عددا حتى فقد هذا الأكلاشيه المسكين معناه وأصبح يثير من الشفقة أكثر مما يثير من إعجاب!! لكنني وقبل أن أخوض في هذه الصفحة الصعبة من تاريخ ثقافتنا ودور مصر الثقافي عربيا وإقليميا، أشير إلي أنني لست من عشاق «جلد الذات» كما قد يسارع البعض باتهامي ظلما وعدوانا ولست متآمرا علي بلد كحال المتأمركين الذين باعوا كل شيء قربانا لصداقة وعمالة مع أمريكا والغرب.. ولكننى محب لمصر، عاشق لترابها ونيلها وريفها.. وكل ما هنالك أن فقدان مصر لدورها الريادي ثقافيا أو ما أتصوره كذلك هو أمر لم يعد بوسع صدري الضعيف احتماله.. وها أنا أبوح به علني أجد بين محبى الثقافة والغيورين علي مصر «اسما ومعني» من يبادلني الرأي «اتفاقا او اختلافا».

وإليكم ما يلي: روت لي السيدة ليلي شهيد سفيرة فلسطين في باريس أنها عندما ربط كيوبيد بخيوطه الحديدية قلبها بقلب زوجها الناقد المغربي الكبير محمد برادة كان ذلك في مصر منذ سنوات خلت وداخل أسوار جامعة القاهرة وذكرت أنه لصعوبة التحدث بينهما بسبب لهجتها المشرقية ولهجة زوجها المغربية.. كانت اللهجة المصرية هي الملاذ الذي لجأ إليه باعتبار أنها اللهجة التي يعرفها «القاصي والداني» في وطننا العربي الكبير.

وأذكر أنني كنت في زيارة عمل في تونس وبعد كلام وسلام مع سائق التاكسي طلب مني طلبا «رأيته غريبا في حينه» وهو أن أحمل له سلاما خاصا إلي الفنان إسماعيل ياسين، الذي تبين لي أن الرجل لم يكن يعرف أنه مات «وشبع موت» وحسبه أنه يستمتع بأدائه السينمائي الرائع وقفشاته العفوية التي يحبها الكبار قبل الصغار.

اعترف أن هاتين الواقعتين قد قفزتا إلي ذهني عندما وجدتني أبحث عن إجابة لسؤال يتعلق ب «الريادة المصرية» التي مل الكثيرون من الحديث عنها وبرغم ذلك يبدو أنها أصبحت اليوم أشبه بالعنقاء التي لا وجود لها.

والريادة التي أعنيها هنا هي «الريادة الثقافية» التي حملتها اللهجة المصرية والسينما المصرية إلي كل شبر في أرجاء الوطن العربي الكبير.. والتي باتت أثرا بعد عين «أو هكذا يبدو لي» فمصر كانت في السابق قبلة الطلاب «الثقافية» التي يأتون إليها من كل فج عميق يخالطون أهلها، ويعشقون أجواءها ويتنسمون هواءها ويتكلمون لهجتها حتي يكاد يصعب تمييزهم عن إخوانهم المصريين.

ولقد اعترف الأديب المغربي «الذي يعيش في باريس» الطاهر بن جلون بهذه الحقيقة عندما قال لي ذات مرة في مكتبه الواقع في شارع «سانجر مان» القريب من جامعة السوربون إن في حياة الأدباء العرب محطة أساسية هي محطة مصر والارتحال إليها أمر لا مناص منه فإما أن نذهب إلي هناك لنخالط أهلها، ونعيش ذات الأجواء التي يعيشها أدباؤها وإما أن نرحل إليها عبر الورق والكتابات.

وأضاف «بن جلون» شارحا رسما كاريكاتوريا نشرته إحدي الصحف مفاده أن الأديبين الكبيرين نجيب محفوظ ويوسف إدريس كانا يركبان سيارة تجري بسرعة علي الطريق، ثم فجأة نادي نجيب محفوظ علي السائق «بعد أن رمق الطاهر بن جلون واقفا علي قاعة الطريق» وقال:

توقف من فضلك ليركب معانا هذا الرجل.. لأنه من أولاد حارتنا!

والشيء ذاته أكده لي الروائي اللبناني أمين معلوف الذي التقيته عندما فاز بجائزة الجونكور الفرنسية عن روايته «صخرة طانيوس» وهو ما دفعني اليوم إلي التساؤل في براءة شديدة: أين الريادة المصرية يا قوم؟ في السابق كانت مصر محطة أساسية في حياة الأديب وطالب الثقافة العربية، فلماذا تغير الحال؟

قديما كان طلاب المعرفة العرب يعرفون جيدا طه حسين «عميد الأدب العربي» وعباس العقاد «عملاق الفكر العربي» وتوفيق الحكيم «عميد المسرح العربي» وبقية الرعيل الذي قاد حركة التنوير في مصر والوطن العربي.

لكن اليوم تبدل الحال وأصبح عسيرا أن نجد بين الشباب العربي من يعرف هؤلاء أو من يحفظ أشعار حافظ إبراهيم أو أحمد شوقي.. والسبب أن هؤلاء المحدثين من الشباب العربي طووا صفحة مصر في حياتهم الثقافية والفكرية منذ اللحظة التي ولوا فيها وجوههم شطر أوروبا وأمريكا.. وأصبح الطالب منهم يعرف «فولتير» ويجهل في الوقت نفسه «المنفلوطي»، ويقرأ للأمريكي «توماس فريدمان» ولا يكترث بما يكتبه «محمد حسنين هيكل» في مصر. يبدو لي «يا قوم» أن مصر قد تنازلت عن موقع الريادة الثقافية.. والدليل علي ذلك أن المغرب تفوقت بمهرجانها السينمائي الذي لم يزد عمره علي خمس سنوات علي مهرجان القاهرة السينمائي الذي يقترب عمره من الأربعين عاما.. أما «دبي» فلقد تربعت بمهرجانها الثاني علي المهرجانين معا.. وهكذا يتبين أن مصر لم تعد تستحق اللقب الذي كان لها طوال السنوات الماضية وهو «هوليوود العرب» ولا شك أن الدراما السورية التي جذبت المشاهدين العرب من المشرق والمغرب والشرق الأوسط هي البرهان الساطع علي ذلك.

وإذا تذكرنا التقلص الغريب الذي يشهده معرض القاهرة للكتاب عاما بعد عام سواء في ندواته أو لقاءاته أو معروضاته لتبين ربما بما لا يدع مجالا للشك أن مصر قد خلعت تاج الريادة عن طيب خاطر أو لعلها خلعته عنوة، لان الزمن

أصبح غير الزمن والطموحات التي كانت سامقة ذات يوم أصبحت دانية في متناول الأيدي!

برغم ذلك فإن أعجب ما أعجب له هو أن يتحدث نفر عن غزو ثقافي مارسته مصر يوما علي شقيقاتها العربيات سواء باللهجة المصرية المحببة إلي نفوس الجميع أو بأغنياتها وأفلامها التي ملأت الساحات الثقافية وممثليها «وممثلاتها» الذين كانت تتآلف القلوب، كل القلوب حولهم.

ماذا جرى لمصر الثقافية

سؤال بريء أطرحه بمرارة «الابـن المحـب لبلـده» بعـد أن حـدثني مستشرق فرنسي شـاب يقـول أن الأدب المغـاربي المكتـوب بالفرنسـية أضحى هو البوابة الحقيقية التي تؤدي باتجاه الأدب العربي.. وطه حسين الذي كانت بعض كتبه تـدرس في معهـد اللغـات والحضـارات الشـرقية بباريس استعاض عنه الفرنسيون بدراسة المغربي محمـد عزيـز الحبـابي ومحمد عابد الجابري.. أما الشـعراء العـرب الـذين يعـرفهم الفرنسـيون فيأتي على رأسهم الشاعر السـوري أدونـيس وغيـاب أحمـد عبـد المعطـي حجازي «زميله في مشوار الغربة الباريسي» عن الساحة الشعرية والأدبيـة كما يعرفها طلاب جامعة السوربون، وعندما يوضع تصنيف عالمي لأهم وأجود ٥٠٠ جامعة في العالم تغيب تماما جامعة القاهرة وبـاقي جامعـات مصر!

إني أبحث يا قوم عن الريادة الثقافية المصرية فمن يدلني علي الطريق.. وهل يتعين أن احمل مصباح ديوجين في جولاتي اليائسة.؟

أين مصر الثقافية التي ملأت الدنيا وشغلت الناس؟

ولا أريـد كلامـا إنشـائيا لمـن يريـد أن يجيبنـي، وإنمـا أريـد وقـائع وتواريخ.. نعـم مصـر كانـت رائـدة في السـابق أمـا اليـوم فـلا ريـادة ولا يحزنون.

المؤلم أن دولا عربية كثيرة أصبحت يافعة ومنتجة بغزارة وتقدمت أشـواطا في طريق الإبداع بينما توقفـت الحركـة في مصـرنا أو لعلهـا تباطـأت ونسـينا القـول المأثور من لا يتقدم يتراجع إلي الوراء!

لست في حاجة أخيرا إلي أن يزايد أحد على مصـريتي وحبـي لبلـدي ولكـن لا يصح إلا الصحيح والنظرة الموضوعية التي تنطلق من الوقائع وتسـتند إلي الأدلـة والبراهين تؤكد أن الريادة الثقافية المصرية انتهي زمانها وأفل نجمها أو كاد وبـدلا من أن يستشيط البعض غضبا مما أذكر لنشغل جميعا أنفسنا بالبحث عن الأسباب، ولا يجوز أن نستسلم لهذا المخدر النرجسي الـذي يرانـا: أفضـل النـاس وأسـبق الناس! كانت جامعة القاهرة هي الجامعة الأولي في الوطن العربي، ولم تعد كـذلك اليوم وكانت الإذاعة المصرية هي الوحيدة التي يسمعها العرب من الخليج الهادر إلي المحيط الهادي واليوم اشـتعلت سـماوات العـرب «بالميـديا» مـن كـل لـون وصنف وانتشرت الجامعـات كالفطريـات في أرض العـرب، وانفتحـت الحـدود باتجاه المتوسط وكثرت مواسم الهجرة إلي الشمال وكان طبيعيـا أن يـذبل بسـتان الريادة.

فهل معي الحق أم جانبني الصواب؟

نحو تحرير القرار السياسي العربي !

قناعتي هي أنه لا توجد سياسة عربية موحدة تجاه القضايا الدولية أو الإقليمية، وحتى القضية الفلسطينية التي يعتبرها البعض قضية القضايا ليس بوسعنا التأكيد أن هناك موقفا عربيا موحدا منها فالثابت عملا أننا وإن اتفقنا علي خطوط عامة بالنسبة لها، فالاختلاف بالقطع وارد في التفاصيل التي يسكنها عادة الشيطان!.

وأرجو ألا يظن أحد أنني أتهم بقولي هذا، السياسة العربية بالقصور أو التقصير، فها هي أوروبا التي قطعت في طريق الوحدة شوطا بعيدا، تعجز عن الوصول إلي سياسة خارجية أوروبية موحدة، ولذلك تركت أمر السياسة الخارجية تقرره كل دولة علي حده، وإن لم يمنعها ذلك من تسمية السيد خافيير سولانا بمنسق السياسة الخارجية الأوروبية إذ يظل الأمر أكثر مطاطية ومرونة ويخضع لمواءمات الدول الأوروبية فرادي وليسوا مجتمعين..

أريد أن أقول إننا لسنا بدعا في هذا الجانب، لكن التداعيات الناجمة عن ذلك باتت تفرض نفسها علينا لكي نتأملها علنا نستخلص بعض الدروس سيما وأن الواقع العملي يؤكد أن السياسة العربية الجمعية تكاد تكون انعكاسا- بشكل أو بآخر- لسياسة القوي الكبرى أمريكا وأوروبا علي وجه الخصوص..

والمثال الصارخ علي ذلك أن السياسة العربية تعاملت- في البداية- مع المقاومة الإسلامية الفلسطينية حماس علي أنها قوة سياسية حقيقية وشرعية، وهي صنو لمنظمة فتح وشريكة في النضال، ومن ثم فمن حقها أن تكون شريكة في الحكم أيضا.

ولقد تزامن هذا الموقف العربي تجاه حماس مع موقف أمريكا وأوروبا، فالأولي رأت أنه لا غضاضة من التعامل مع العناصر الإسلامية المعتدلة ليس فقط في أوساط حماس الفلسطينية ولكن أيضا في أوساط الجماعات الإسلامية في مصر والأردن وسوريا.

وكان سهلا علينا- كمراقبين- أن نلمس هذه النبرة الأمريكية الهادئة في التصريحات أو التعليقات إذا ما كان الأمر يتعلق بالإسلاميين في المنطقة العربية.

ولقد تساوق ذلك مع تبني أمريكا لسياسة دمقرطة العالم العربي والإسلامي وهي السياسة التي أقلعت عنها أمريكا بعد ذلك.

أما الأوروبيون فلقد كشفوا عن مباحثات يجرونها في بروكسل مع من سموهم بالإسلاميين المعتدلين وكان علي رأس المتحاورين عناصر من حماس.. لكن ما أن قلب الأمريكان والأوروبيون ظهر المجن لحماس وأصدرت بروكسل بيانا أعلنت فيه إدراج حماس ضمن قائمة المنظمات الإرهابية، حتى وجدنا السياسة العربية تدير ظهرها- بدورها- لحماس، وتتبني سياسة نقدية وربما هجومية غير مسبوقة تتلامس مع سياسة القوي الكبرى!

المثال الثاني الموقف من المقاومة اللبنانية وحزب الله، فلقد كانت سمة الحذر تصبغ السياسة العربية ولقد بدا هذا واضحا إبان حرب يوليو/ تموز٢٠٠٦ التي انتصرت فيها المقاومة اللبنانية علي إسرائيل.. وكان واضحا أن هذا الحذر يتلامس- إلا قليلا- مع موقف عدائي أمريكي- أوروبي اتسعت دوائره بعد ذلك حتى أصبح علنيا وصاخبا خصوصا مع شعور إسرائيل بالمهانة بحسب تقرير

فينوجراد لأنها لم تستطع أن تدمر المقاومة اللبنانية وكانت تظن أنها قادرة علي سحقها بأقل القليل من العدد والعتاد والأعصاب!.

.. وهنا بدأ الموقف العربي يتخلي عن حذره ليصطف مع موقف الدول الكبرى الذي تأسس علي تعميق الانقسام والتشرذم بين أطياف وتيارات القوي الداخلية في لبنان.. وأكاد أقول إن الموقفين: الموقف الدولي، وموقف السياسة العربية بدا متداخلين دون فواصل كبيرة بينهما، وهو ما يؤكد قناعتي بأن الموقف العربي ليس أصيلا وإنما تابع في هذه المرة أيضا.

وغاب عنا أن حزب الله- المحسوب علي إيران- هو حزب لبناني ينخرط فيه شباب من جميع أنحاء لبنان، وعندما تمكن من إجبار الجيش الإسرائيلي علي الخروج من جنوب لبنان، كانت هذه المناسبة (فرحا) كبيرا ملأ القلوب اللبنانية دون أدني تمييز بين شيعي أو سني أودرزي أو ماروني.

الشيء الثاني الذي غاب عن بالنا، أن السياسات- بشكل عام- تأتي انعكاسا لرؤى مصلحية، فإذا كانت أوروبا وأمريكا من الخير لها أن تناصب المقاومة اللبنانية العداء فبالقطع الخير لنا يمكن أن يكون شيئا آخر غير ما تراه القوي الكبرى المتورطة في الأزمة اللبنانية مثل (أمريكا وفرنسا).

الشيء الثالث، ان التقلبات السياسية هي فعل لبناني بامتياز وتاريخ لبنان حافل بهذه التناقضات، وكلنا يذكر أن زعماء لبنان بدون استثناء كانت دمشق قبلتهم لسنوات خلت بل إن تغيير الدستور اللبناني من أجل التمديد للرئيس السابق إميل لحود لم يحدث إلا بموافقة الجميع من أقصي اليمين السياسي إلي أقصي اليسار ولئن قلب الجميع- إلا قليلا- ظهر المجن لسوريا اليوم فليس هناك ما يمنع من عودة المياه إلي مجاريها غدا أو بعد غد فهكذا هو ناموس الحياة السياسية في بلاد الأرز وباعتراف قادتهم وليس أدل علي ذلك من المغازلة الفجة التي قام بها أخيرا السيد وليد جنبلاط للنظام الإيراني الحليف المباشر للنظام السوري وهو هنا

يمارس سياسة طاحونة الهواء علي حد تعبير جريدة التايم البريطانية والمعني هو السياسة ا لتي لا تستقر علي حال.

الشيء الرابع، هو أن قاعدة التوافق هي القاعدة الذهبية التي تحكم لبنان منذ استقلالها وحتى اليوم وغدا وعندما تتنازل الموالاة وتتراجع الحكومة اللبنانية عن القرارين اللذين أشعلا الأزمة إنما يعني ذلك اعترافا بخطأ الوقوع في وهم أن لبنان يمكن أن يحكم جبرا أو قسرا واقتدارا وليس عبر قاعدة التوافق.

أريد أن أقول أن السياسة العربية ستجد نفسها في مأزق حقيقي إذا عاد الصفاء إلي مياه البئر اللبنانية وتوافق فرفاء الأمس وأصبحوا حلفاء اليوم والغد وعندئذ سيكون العرب هم المذنبون وليس اللبنانيين.

والأخطر من ذلك أن التاريخ سوف يحاكمهم مثني وثلاث ورباع لأنهم تبنوا خطابا سياسيا أمريكيا وأوروبيا ووقفوا وراء أطراف وتيارات لا تعرف الثبات أو الاستمرارية خصوصا إذا تذكرنا أن أمريكا التي تشن حربا كلامية ضارية ضد إيران، تتحاور معها سرا ومنذ خمس سنوات، كما اعترف الأمريكيون أنفسهم حول قضايا مثل الأمن في العراق أو الملف النووي..الخ

والغريب أن المستنقع اللبناني أصبح فيه موطئ لأقدام كثيرة أمريكية وأوروبية وإيرانية وسورية إلا إسرائيل التي اصطبحت فجأة بردا وسلاما بل وترياقا لآلامنا وأوجاعنا مع أن أحدا لن يستفيد من ضرب إيران أو نزع سلاح المقاومة في فلسطين ولبنان وغير إسرائيل.

يبقي أن نذكر انه آن الأوان أن نحرر قرارنا السياسي العربي مما يكبله من رومانسيات وكوابح وقصر نظر فالثابت أن القوي الكبرى لا هدف لها حاليا سوي اغتيال المقاومة بجميع صورها وأشكالها في المنطقة العربية لكن ليس هناك ما يمنع من أن تري شيئا آخر في سياق آخر إذا اختلفت المعادلات وتباينت المصالح.

السياسة على الطريقة العربية

في أمور السياسة لا توجد ردود فعل (انفعالية) أو عاطفية، وإنما يتعين أن يكون كل شيء محسوباً بدقة.. خصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بمصالح دول أو سياسات كبرى واستراتيجيات..

فمثلاً- في هذه الأيام- تنشغل حكومات العالم ومراكز الأبحاث، ومراكز التفكير الدولية بتحديد ملامح السياسات التي يمكن أن تنتهجها الدول الكبرى تجاه التغيير الذي ستشهده الولايات المتحدة سواء إذا فاز «أوباما» أو إذا فاز «ماكين».

والمبدأ الحاكم- في مثل هذه الحالات- ألا تترك المواقف للمصادفات تحددها.. ويستوي في ذلك ردود الفعل الخارجية أو الداخلية.

ففي فرنسا- على سبيل التوضيح- وعندما احتدمت المعركة الانتخابية بين ساركوزي وبين منافسته الاشتراكية سيجولين رويال.. استعدت الميديا الفرنسية (مقروءة ومسموعة ومرئية) بأرشيف ضخم للمتنافسّين بحيث يكون كل شيء معداً ومجهزاً سلفاً..

بمعنى أن الميديا ظلت تتعامل بشكل محايد حتى اللحظة الأخيرة.. وتضع في اعتبارها إمكانية فوز ساركوزي أو رويال فجمّعت كل ما يمكن أن يقال عن كليهّما.. وجهزت- بالفعل- صفحات كاملة تتحدث عن الاثنين، وبعد إعلان النتيجة بأقل من نصف ساعة كانت هناك طبعات

خاصة من الصحف الكبرى مثل «لوموند» و «لوفيجار» و «ليبراسيون» يقرأ فيها الفرنسيون كل ما يودون معرفته عن الرئيس الجديد..

أي أن الميديا الفرنسية لم تنتظر يوماً كاملاً- كما هي عادة الصحف مثلاً- لكي تعد طبعة خاصة عن الفائز في الانتخابات..

أقطع بأن شيئاً كهذا- وربما بشكل أكثر حداثة- سوف يحدث ليس فقط مع الميديا الأمريكية ولكن أيضا مع المراكز البحثية، وخلايا التفكير المتعددة في المجتمع السياسي الأمريكي.. فكل شيء يتم إعداده- سلفاً من دراسات وتحليلات للرأي العام، وقياسات وإحصاءات، وتفسيرات الفوز سواء إذا أرجحت كفة ماكين، أو كفة أوباما..

ولا يتصورن عاقل أن دولة مثل ألمانيا- باعتبارها دولة كبرى في أوروبا والعالم- سوف ننتظر صيحة اليوم التالي للانتخابات الأمريكية لتجتمع حكومتها لدراسة الموقف الألماني من الرئيس الجديد في أمريكا..

وإنما السياسة الألمانية معدّة سلفاً، ومعروفة لأركانها من الوزراء وكبار المسؤولين وسوف يتم التعاطي مباشرة مع النظام الجديد في واشنطن..

وما ينصرف على ألمانيا سوف يشمل أيضا دولاً قبل فرنسا، وإيطاليا، وأسبانيا.. وكذلك روسيا، والصين،.. وبقية الدول الفاعلة في النظام الدولي.. السؤال الذي يؤرقني- فعلاً لا قولاً- هو التالي:

هل أعدت حكوماتنا العربية العدة لتغيير كبير، كهذا الذي يحدث في أمريكا.. بمعنى هل رسمت السياسات ووضعت الخطط، وحددت سلوكياتها السياسية تجاه القادم الجديد في البيت الأبيض. أم تركت- كعادتها- الأمور للحظة الأخيرة لتحكمها في النهاية. الأمزجة والعواطف وخفة الظل؟!

الغزو الثقافي المصري للعالم العربي !

بقليل من الصراحة (والشفافية) يجب أن نعترف بأن ثمة إشكالية ثقافية في علاقة مصر بشقيقاتها العربيات تحتاج منا (جميعاً) إلى أن نفهم أسبابها ونسير أغوارها، خصوصاً بعد أن بدأت تتبدى في «مواقف وسلوكيات» كثيرة إلى حد أن البعض ارتاح إلى فكرة أن مصر مارست فعلاً لا قولاً، غزواً ثقافياً على الدول العربية امتد لعقود وعقود ..! فرضت .. بمقتضاه رؤاها الأدبية والحضارية والفنية على الأجيال العربية المتعاقبة. وكانت العلاقة بين مصر والدول العربية تسير في اتجاه واحد من أعلى إلى أسفل أو من مصر إلى هذه الدول جميعاً، حتى أضحى الجميع ينظرون بعيون مصر: فالذوق الفني هو بالضرورة الذوق المصري، والأدباء المبرزون مصريون، والرواية مصرية، وكذلك الحال مع السينما والغناء.. بل إن تاريخ مصر وثورة ١٩ تحفظه الأجيال العربية عن ظهر قلب عبر ثلاثية نجيب محفوظ.. أما ثورة يوليو وعبد الناصر (وإنجازاتها) فتشكل جزءاً أصيلاً في التكوين الفكري والثقافي للشعوب العربية، ناهيك عن نسائم الطرب الكلثومى الذي تمايلت على إيقاعاته كل القلوب العربية العاشقة. ولقد بدأت ملامح هذه «الإشكالية» تتخلق منذ اللحظة التي وعت فيها بعض الرموز العربية أن للمصريين عقولاً ولهم أيضاً عقول ومثلما عايشوا طويلاً إنتاج العقول المصرية في مختلف الميادين، يتعين على المصريين أن يعايشوا ما تنتجه حالياً العقول العربية. ويحضرني في

هذا المقام ـ مثالان : الأول صاحبه هو المفكر اللبناني غسان سلامة الذي حدثني عن أن المؤلفات العربية في القانون والسياسة وعلوم الاقتصاد والاجتماع لا تخلو من مراجع مصرية (إلى جانب المراجع الأجنبية بالطبع) بل إن الإنتاج المصري في مجالات التأليف المختلفة يحتل مساحة كبيرة ومتميزة ويحسب له الباحثون العرب ألف حساب. المفارقة أن الإنتاج العربي يكاد يكون غائباً بشكل كامل في حركة التأليف المصرية. وإن كنت في شك مما أقول- هكذا يستطرد د. غسان سلامة- فلنفتح معاً كتاباً مصرياً في القانون أو السياسة، لتكتشف معي أن هذه الملاحظة صحيحة مائة في المائة.. فلا يستعين باحث مصري واحد بمراجع لمؤلفين عرب إلا بالكاد..! المثال الثاني جاءني هذه المرة من مخرج جزائري يعيش في باريس.. يقول : لقد فرضت علينا مصر إنتاجها السينمائي طوال عشرات السنوات فتعلمنا منه- بلا شك- كما استمتعنا به. وكانت اللهجة المصرية عسيرة علينا، فتدربنا عليها حتى أتقناها كأهلها .. ثم يطرح المخرج الجزائري السؤال التالي في شيء من سخط: لماذا لا يشاهد المصريون إنتاجنا السينمائي في المغرب العربي .. وإلى متى لا تلتفت دور السينما المصرية إلى أفلامنا؟ ثم يستطرد قائلاً: إذا كانت لهجتنا عصية عليكم فليس هناك ما يمنع من دبلجتها كما تفعلون مع الأفلام الأمريكية والفرنسية!. هذان المثالان- اللذان جاء أولهما من قلب محب هو قلب وزير الثقافة اللبناني السابق (غسان سلامة)، وثانيهما من قلب عربي غاضب (وله العذر على كل حال) إنما يرسمان ملمحاً حقيقياً لأزمة قائمة بالفعل تتعلق بدور مصر الثقافي في العالم العربي.. وظني أن التعامل معها بطريقة (الفتنة نائمة لعن الله من يوقظها) هو تبسيط مخل وتأجيل غير مبرر لإشكالية تطل برأسها بإلحاح منذ زمن دون أن يكلف أحدنا نفسه بأمر مناقشتها، هذه الإشكالية يلخصها السؤال الصعب التالي: هل خطط المصريون حقاً لغزو ثقافي عبر المد الأدبي والفكري الذي عم المنطقة العربية من الخليج إلى المحيط؟ هل كانوا حقاً غزاة يفرضون رسالتهم الثقافية (بالقوة) شأن كل الغزاة الذين حدثنا عنهم التاريخ؟ والسؤال الأهم: هل كانت لديهم حقاً (رسالة ثقافية- استعمارية

يحرصون على تكريسها ونشرها بين الشعوب العربية)؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون درجة من درجات الحساسية لدى بعض الأفراد الذين توهموا- لأسباب سياسية في مرحلة بعينها- أن مصر تمارس استعماراً ثقافياً (عبر الصوت والصورة والكتاب) على جيرانها العرب؟ أذكر- والله على ما أقول شهيد- أنى طرحت هذه الأسئلة على ثلاثة من المفكرين العرب رحل أولهم وهو الفيلسوف المغربي محمد عزيز الحبابى الذي رفض الفكرة شكلاً وموضوعاً وقال إن مصر العربية المسلمة لم تمارس في يوم من الأيام استعماراً أو غزواً، وإنما هي كانت سباقة في مجال المعارف وكان طبيعياً أن يصل إنتاجها إلى كل الناطقين بالضاد .. وأمام غزارة هذا الإنتاج- هكذا قال الرجل- وتنوعه وتعطش المنطقة العربية إليه كان علينا أن ننسى أن الإمام محمد عبده أو طه حسين أو العقاد أو الحكيم (مصريون) .. فهم عرب يكتبون باللغة العربية ويتحدثون عن قضايا تهم كل العرب. واستطرد الحبابى (في حديثه معي) يقول: قد نسجل بعض المآخذ أو الملاحظات على زملائنا وأصدقائنا في مصر، ولكنها مآخذ ينطبق عليها القول بأن «البوسة مثل القرصة» لا تعنى سوى المحبة والمودة ولا هدف لها سوى لفت الانتباه!

المفكر الثاني هو الجزائري محمد أركون الذي استهجن كل من تسول له نفسه أن يفكر في غزو مصري (ثقافي) للعالم العربي، وقال : ريادة مصر في مجالات التأليف والتمثيل والغناء لا ينكرها إلا جاحد ... وكان طبيعياً أن تتحول- في مرحلة سابقة- إلى قبلة يتطلع إليها كل الراغبين في التزود من العلم، فحركة التأليف والترجمة والإبداع جعلت مصر لفترات طويلة أشبه بالواحة الغناء وسط صحراء مترامية .. وبالتالي فالحديث عن غزو مصري هو حديث لا معنى له، لأن خير الواحة لابد أن يتسرب إلى الأماكن المحيطة. والشيء نفسه أكده المفكر الثالث وهو (عالم الاجتماع السياسي السوري برهان غليون) الذي رأى أن هذه الإشكالية لا وجود لها إلا في بعض الأذهان المريضة، ولقد روج لها نفر من الانعزاليين الذين يريدون فصم عرى الأمة العربية، ويتهمون مصر أو غيرها من الدول بما

ليس فيها. والصحيح أن مصر شاءت أقدارها التاريخية والجغرافية أن تقطع أشواطاً في اتجاهات مختلفة وكان حصاد هذه الحركة وفيراً (ثقافياً وإبداعياً) وسار كالنهر يروى البلاد الأخرى التي استفادت واستوعبت ثم أبدعت. لكن يبقى أن البعض يرى أن مصر استعمرت العقول العربية ردحاً من الزمن مرة بدعوى «الريادة» ومرة أخرى بدعوى أنها «الشقيقة الكبرى» وقد آن أوان التحرر منها!..

العقل السياسي العربي .. كفاك كسلاً!

لست أري مُبرراً لحالة الإحباط التي تتحدث عنها بعض الأوساط السياسية العربية إزاء خطاب الرئيس الأمريكي من جامعة القاهرة سوى أن العقل السياسي العربي قد أدمن الكسل والتواكل، ويريد من أمريكا (ورئيسها) أن يهبط عليه بالحلول من كل لون وصنف لمشكلاته الآنية والمؤهلة..

والغريب أن الرئيس الأمريكي قد لفت الانتباه إلي أنه لا يستطيع أن يقدم- في رؤية واحدة- الحلول التفضيلية لمشكلات المنطقة والعالم، ورغم ذلك صعدت الآمال إلي أعلى عليين لذلك لم يكن غريبا أن تهبط بعد ذلك إلي أسفل سافلين..

وفي ظني أن ما قدمه أوباما من إطار عام للرؤية والتحرك في المرحلة المقبلة كان واضحاً وكافياً.. ويبقى بعد ذلك أن تتحمل الأطراف المعنية بهذه القضايا الساخنة سواء في فلسطين أو إسرائيل أو العراق أو أفغانستان أو إيران مسئوليتها لترجمة هذه النوايا الطيبة (أمريكيا) إلي تعاون وثيق ينطلق من فهم حقيقي لمفردات الصراع في كل هذه المناطق.

المؤسف أننا قد أسرفنا في الاعتياد على أن التغيير سلباً أو إيجاباً يهبط علينا فجأة ويكون دائماً بأيدي خارجية.. ولذلك عندما جاء الرئيس

الأمريكي ليقول إننا شركاء في الواقع الصعب، والمستقبل المأمول، لم

اطمئن إلي قولة، وتحدث من بيننا من أتهمه بالسذاجة، ودغدغة المشاعر وأنه رجل أقوال لا أفعال.. والسؤال الآن: إذا كنا نراه مجرد رئيس يتكلم، فما هو حالنا وماذا نطلق على أنفسنا ونحن لم نحاول الكلام.. وحسبنا أن ننام ثم إذا صحونا.. نتثاءب ثم نعود إلي النوم مثنى وثلاث ورباع..

ومن بيننا من يتحدث لغة عقيمة ويصرّ عليها رغم أن مفردات العلاقات الدولية لم تعد تعترف بها.. وأقصد بهذه اللغة: لغة الضغط.. فنسمع أن كثير- من بيننا- من ينتقدون أوباما طالبين منه أن تضغط على إسرائيل كي توقف الاستيطان، وترحل عن الأراضي الفلسطينية المحتلة.. وهو أمر غريب لأن السياسة الدولية لم تعد تعترف بالضغوط وإنما بالمصالح.. وبالتالي فالحالم بالضغوط هو داهم، وقصارى الأمر الذي يفهمه الصغير قبل الكبير هو أن مصلحة أمريكا هي الفيصل.. وكذلك مصلحة إسرائيل.. والمسألة تتعلق بصراع المصالح.. وفي ظني أن شفافية أوباما كما كشفها خطابه في جامعة القاهرة تحرض على ممارسة لعبة المصالح معه.. ومن خلال هذه اللعبة يمكني أن نخفف مكتسبات في هذا الاتجاه أو ذاك.. أخيرا لو نجح نداء الرئيس الأمريكي في إيقاظ العالم الإسلامي على هذه الحقيقة فسيكون ذلك أمراً جيداً.

نزيف العقل العربي

في كل مرة يُصادفني اسم من الأسماء العربية ضمن كبار العلماء والباحثين في العالم، والذين يحملون جنسيات الدول الأوروبية، أشعر بالمعنى المُحزن لكلمة نزيف التي نصف بها عادة هجرة العقول العربية، وانخراطها في مراكز الأبحاث العلمية في الدول الأجنبية.. بل أكاد أقول إن كلمة نزيف هي أصدق كلمة يمكن أن تُطلق على ظاهرة «هجرة الكفاءات العربية إلي الخارج» لأنها تعني الاستمرارية كما تعني فداحة الخسارة أيضا، وهو واقع الحال بالنسبة لهذه الهجرة التي تؤكد الدراسات الإحصائية أنها تشمل اختصاصات ذات تقنيات علمية رفيعة مثل الهندسة والطب، وعلم الفيزياء.

فتطُلعنا الأرقام على أن ٥٠٪ من إجمالي عدد الأطباء العرب قد تركوا بلادهم وهاجروا للعمل في أوروبا الغربية والولايات المتحدة كما تركها أيضا نحو ٢٥٪ من إجمالي عدد المهندسين ونحو ٢٠٪ من إجمالي عدد المتخصصين في العلوم التطبيقية، كما تُقدر اليد العاملة العربية الموجودة بالفعل داخل المجموعة الأوروبية فقط بما لا يقل عن ٥ ملايين عامل بما فيها الجيل الثاني الذي دخل سوق العمل..

وقد كشفت إحدى الدراسات أن عدد الهاجرين من أصحاب الكفاءات بلغ ٢٣٠ ألفا، هاجر ١٢٠ ألف شخص مؤهل منهم إلي الولايات المتحدة وكندا بين عامي ١٩٦١ و١٩٧٢. أما من حيث توزيع الاختصاصات المهاجرة بالنسبة إلي البلدان العربية في هذه الفترة، فقد بلغت نسبة المهندسين ٤٦.٢٧٪ والمختصين في العلوم الطبية ٣٤.٣٥٪، وعلماء الطبيعة ٥.٢٪ والمختصين في العلوم الإنسانية ٣.٧٪.

وقدمت الدراسة بيانا بالأرباح والخسائر الناجمة عن الهجرة وفيه أن رأس المال الداخل إلي الولايات المتحدة الأمريكية بفضل الهجرة إليها بلغ حوالي ٣٠ بليون دولار بين عامي ١٩٦١ و١٩٧٢، ولسبب مماثل، ربحت كندا بين عامي ١٩٦٣ و١٩٧٢ نحو ١٠ بلايين دولار، وربحت بريطانيا ٣.٥ بلايين دولار تقريبا بين عامي ١٩٦٤ و١٩٧٢.

أما خسائر البلدان العربية من جراء هجرة أصحاب الكفاءات من أبنائها فتُقدر بنحو ٤٠٠ مليون دولار سنويا.

ولقد تعددت الأبحاث حول أسباب هذه الظاهرة التي أمام ضخامتها وتواترها- لم يعد يكفي القول بأنها فقط أسباب مالية ترجع لرغبة «صاحب الكفاءة» في أن يعيش في مستوى اقتصادي مُرتفع.. فالثابت أنها ترجع إلي عوامل أخرى أكثر عمقا وشمولا وهي: البحث عن أفضل الظروف للعمل، وإلي شروط الاستمرار فيه والإمكانات المفروضة على الشباب ليحققوا نضجهم الشخصي الكامل..

والأخطر من ذلك، ما يمكن أن يُقال أيضا حول أزمة البحث العلمي: فمعظم سكان الدول النامية لا يقدرون مجهودات الباحثين والعلماء ويعتبرون البحث العلمي من الكماليات وأن يفرض اعتمادات وأجورا جدُ مُرتفعة لا مثيل لهم بها، مما يتسبب في عدم إنماء روح الإبداع والانقطاع الطويل عن مواكبة البحث

العلمي، وعدم وجود إستراتيجية واضحة المعالم للبحث العلمي في ظل تبعية تكنولوجية والاعتماد على الأجهزة المستوردة، وضعف إمكانيات تصنيع أجهزة عليا مع قصور الأنظمة التعليمية الذي يظهر جليا في القطيعة بين الجامعة والصناعة والاستثمار غير الرشيد للموارد الطبيعية.

كما يُضاف إلي هذه القائمة أسبابُ أخرى منها فائض النظام التعليمي في البلدان العربية، وعدم الربط بين الجامعات وسوق العمل وهو ما أسفر عن عدم توازن كان من نتائج هجرة الأفراد إلي الخارج بحثا عن فرص للعمل والحياة..

وعلى الرغم من أن ظاهرة هجرة الكفاءات قد عرفتها المنطقة العربية منذ الستينات إلا أن الاهتمام بها والبحث في أسبابها ونتائجها السلبية لم يبدأ إلا في السنوات العشر الأخيرة، سواء في الأوساط البحثية والأكاديمية في الدول المعنية، أو في دوائر المنظمات الدولية.

فقد بدأ الكثيرون ينظرون إلي هذا النوع من الهجرة على أنه نكسة للتنمية في بلدان العالم الثالث.. وهي في الحق كذلك، المتحدث الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة قرارات هامة تتخذ فيها البلدان المتقدمة وتطلب تعويض البلدان النامية عن خساراتها الكبيرة من جراء «النزيف» الدائم لعقولها..

أما البلدان العربية فلم تكن بعيدة عن دائرة هذا الاهتمام عندما أدركت في وقت مبكر خطورة هذه الهجرة، فذكرت اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية لعام ١٩٦٤ في مادتها الأولى الإشارة إلي حرية تنقل الأشخاص ورؤوس الأموال وحرية الإقامة والعمل، كما طالب وزراء العمل العرب في اجتماعهم عام ١٩٦٥ الدول الخليجية بإصدار تشريعات تكفل الحد من الهجرة غير العربية إليها وإعطاء الأولوية لليد العاملة العربية. كما سارت في نفس الاتجاه مواثيق وقرارات أخرى منها اتفاقية تنقل الأيدي العاملة العربية لعام ١٩٧٥، والتي تطالب بالعمل تدريجيا من أجل تعويض القوى العاملة الأجنبية في الدول العربية بقوى عاملة

عربية وتشجيع رؤوس الأموال العربية في مشاريع تهدف إلي إيجاد فُرص عمل لاستيعاب الفائض من العمالة العربية وتقليص عوامل الدفع إلي خارج الوطن العربي، وإلزام الشركات الأجنبية المُنفذة للمشاريع الجاهزة للتشغيل داخل الوطن العربي باستخدام نسبة معينة ومتصاعدة من العمال العرب..

وقد تم اعتماد هذه الأهداف من قبل «ميثاق العمل القومي الاقتصادي» واستراتيجية العمل الاقتصادي العربي المشترك» كما أقرها جميعا مؤتمر القمة العربية الحادي عشر المنعقد في عام ١٩٨٠.

إنها أرقام وإحصاءات مُحزنة ومُخجلة في آن واحد. وأتصور أننا منذ سنوات بعيدة قد فرغنا من مهمة تشخيص هذه الظاهرة، وهددت عشرات بل مئات التوصيات، وتأسست لذلك لجان ولجان.. لكن الهجرة ما تزال «مستمرة»، والبكاء والنحيب على فقداننا لأغلى ما نملك «مُستمر» أيضا، وبين هذين الاستمرارين تكره السنوات (؟؟؟) المسبحة بلا طائل أو جدوى.. إنها إحدى تجليات الزمن العري الرويئ..!!

تفكيك العالم العربي

تساق على المرء أن يرصد ظاهرة مؤلمة هي أننا- في المنطقة العربية- لم نعد نرى العالم (والأشياء) من حولنا إلا من خلال (غمامة إسرائيلية) ضالة ومُضللة.. توردنا- جميعا- المهالك لكنها- في ذات الوقت- تضمن لإسرائيل السطوة والنفوذ.. والمكان الرفيع! والأمثلة على ذلك كثيرة ومُوجعة في آن واحد.

منها هو العقل السياسي العربي ظل- لعقود طويلة- أسير قناعة خاطئة مؤداها أن الوصول إلي قلب أمريكا يبدأ بقلب إسرائيل.

والإنصاف يقضي بالقول إن هذه القناعة إذا كانت صالحة في فترات سابقة فلم تعد كذلك مع الرئيس الأمريكي الجديد باراك أوباما.. ومن يتأمل خطابه القصير (١٩ دقيقة فقط) الذي خاطب فيه الأمة الأمريكية والعالم في حفل تسلمه السلطة سيجد أن الرجل تحدث عن بناء أمريكا جديدة، وعن رغبته في إقامة علاقات مع العالم الإسلامي عبر الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة..

وفي ظني أنها فرصة مؤاتية للجانب العربي كي يبدأ صفحة جديدة مع أمريكا- أوباما.. فلقد معنى- إلى غير رجعة- خطاب الغش والتدليس والنفاق والأكاذيب الذي برع فيه الرئيس السابق جورج دبليو بوش ورفاقه من المحافظين الجُدد، والذي استحق لقب (أكذب) رئيس

أمريكي على مر العصور.. وحتى الآن لا يوجد مُبرر لكي يكون أوباما (كذابا) مثل سابقه وقد يكون العكس هو الصحيح، بمعنى أنه سيحرص على أن يفي بوعوده والالتزام بكل كلمة وضعها بنفسه في برنامجه الانتخابي، لذلك كان الرجل واضحاً عندما كرر في أكثر من مناسبة اهتمامه بمتوسطي الدخل وتحسين أصول فقراء أمريكا والبحث عن حلول سريعة للبطالة التي تنخر في عظام شباب أمريكا كالسوس.. ومواجهة تداعيات الأزمة المالية التي أصبحت بين عشيه وضحاها أزمة اقتصادية عالمية..

إذن بات يتعين على العالم العربي أن يدرك أنه يتعامل مع إنسان جديد (أوباما) يفسح مُجالاً للقيمّ الأخلاقية (بما فيها من صدق والتزام) في السياسة.. صحيح أن المصلحة هي لغة السياسة الأولى لكن ذلك لا يعني أن المصلحة تتضاد وتتعارض دائماً مع الأخلاق.

والأهم أيضا- من وجهة نظري- أن يُغيرّ العرب منهجهم في التعاطي سياسياً مع أمريكا، لأن الانتظار كي يظهر لنا نظام دولي أكثر عدلاً سيعني أننا سوف ننتظر أحقاباً زمنية طويلة.. وانتظار أن تأتي قيادة أمريكية غير مُنحازة لإسرائيل سيعني أيضا أننا ربما ننتظر ألف عام أخرى.. وهنا فإن الرؤية العربية الصحيحة يجب أن تتحرر من الغُمامة الإسرائيلية التي تضعها على عيوننا ونحن نتعامل مع العالم الخارجي..

فأمريكا من حقها أن تقيم علاقات ودودة مع إسرائيل لكن هذا لا يمنع من أن نبني جسوراً مع أمريكا عبر إدارتها المتلاحقة.. بكلمة أخرى ليس بمقدورنا أن نفرض على أمريكا كيف نتعامل مع الآخرين لكن بوسعنا أن نرسم من منظور الاحترام المتبادل والمصلحة المشتركة ملامح علاقتها بنا.

المثال الثاني: أننا إذا بحثنا وراء كل المشاريع التي تهطل على المنطقة العربية بين وقت وآخر مثل الشرق الأوسط الكبير أو الشرق الأوسط الموسع أو الشرق الأوسط وشمال أفريقيا سنكتشف أنها صور مُعدّلة لمشروع إسرائيلي باسم الشرق

الأوسط الجديد شرحه شرحاً وافيا في أوائل التسعينيات القرن الماضي شيمون بيريز في كتاب له- كل نفس العنوان. والثابت عملاً أن إسرائيل هي المستفيد الأول من كل هذه المشاريع التي تستهدف (تذويب) المنطقة العربية في محيط أوسع يبدأ من «إسلام أباد» في باكستان وينتهي في «الرباط» بالمغرب.

وليس من شك في أن أمريكا وإسرائيل قد اجتمعت (إرادتهما) على تفكيك العالم العربي حتى أصبح الحديث عن أمة عربية واحدة أشبه بأضغاث الأحلام.

وكلنا يذكر أن المصطلحات والمفاهيم التي نشأنا عليها والخاصة بالفكر العربي مثل العالم العربي، أو الأمة العربية أو القومية العربية أو العمل العربي المشترك أو الفكر القومي.. اختصت (أو كادت) من حياتنا لتحل محلها مصطلحات أخرى من نوع المنفعة العربية أو الشرق الأوسط أو شمال أفريقيا أو دول جنوب المتوسط ناهيك عن نجاح أمريكا وإسرائيل في تكريس (القُطرية) بمعنى تكبير صورة «القطر» على حساب «الإقليم» وتغييب (أو قتل) الإحساس بالانتماء إلي المحيط العربي الأوسع، فليس صدفة أن يتم استبعاد كلمة (عربية) من اسم العراق الذي أصبح اسمه الرسمي: جمهورية العراق، وينصرف الشيء ذاته على أسماء أخرى مثل دولة الكويت، ودولة قطر، ومملكة البحرين، والجمهورية اللبنانية.. صحيح قد لا يكون هناك (يد) طولي للأمريكان والإسرائيليين في المسميات الأخيرة (بعكس العراق التي هدمتها أمريكا وصنعتها من جديد على الصورة التي كانت تريدها في الأصل) لكن تهميش الفكر القومي الذي يسير منذ سنوات وربما منذ رحيل عبد الناصر في عام ١٩٧٠، والتراكم التي تحقق في هذا الاتجاه هو الذي جعل الدول العربية تميل أو بالأخرى لا تنزعج ولا نأبه لسقوط كلمة العربية من أسمائها..

الأخطر هو أن تعميق الهوة بين الدول العربية الشقيقة هو (ديدن) السياستين الأمريكية والإسرائيلية.. وإذا لزم الأمر من إحداث وقيعة أو إثارة فتن ليحل الخصام والعداء (محل) الوئام والصداقة. فلا تترد إسرائيل في فعل ذلك مثنى

وثلاث ورباع لتصبح سيدة المنفعة بلا منازع. فالطموح الذي يدغدغ مشاعر قادة إسرائيل هو أن تبدأ الحقبة الإسرائيلية التي تكون فيها الدولة العبرية (القائد) أما بقية الدول في المنطقة فهي (التابع)..

والمؤلم أن العالم العربي قد استمرا- أو هكذا يبدو- وضع القمامة الإسرائيلية على عينيه (؟؟؟) عن باله أن إسرائيل تشن على العرب حروبا من كل صنف ولون، منها الحرب الإعلامية التي تديرها بكفاءة منقطعة النظير، فاخترقت- فعلاً لا قولاً- خطابنا السياسي وخطابنا الإعلامي.. فنجد من بين سياسينا من إذا تحدث ظنناه إسرائيليا لأن المفردات التي يستخدمها والتوجهات والأهداف لا تختلف كثيرا عما يدور على ألسنة قادة إسرائيل أما عن الخطاب الإعلامي فحدّث ولا حرج إذ لا فرق بين المصطلحات التي تستخدمها الميديا الإسرائيلية عن تلك المنتشرة عبر وسائل الميديا العربية.. ومع استمرار استعمالها أصبحت مألوفة في عين وأذن المشاهد والمستمع العربي..

وهذه كارثة يتحدث عنها خبراء الإعلام العربي بوصفها (أسرلة) كاملة للمصطلحات الإعلامية. وليس يبتعد عن هذه الدائرة ما لا خطناه مكتوباً في أكثر من صحيفة عربية ويتعلق بموقف الاتحاد الأوروبي من أحداث غزة.. فلقد تحدثت عن أن الاتحاد جمّد مباحثات ترفيع مستوى العلاقات مع إسرائيل احتجاجاً على عدوانها على غزة! وهو خبر خاطئ جملة وتفصيلاً ولا أساس له من الصحة.. لأن واقع الحال هو أن متحدثاً أوروبيا صرّح بأن الطرفين الأوروبي والإسرائيلي قد اتفقا على وقف هذه المباحثات لسبب الحرب الدائرة في غزة. وثمة فارق بين المعنيين لا يغيب عن لبيب. لكن المخجل أن الميديا العربية المولعة بالحديث عما تتمنى أن يكون (وليس ما هو كانت بالفعل) قد نشرت الخبر.. فبرأت به أوروبا من جريمة التواطؤ والسبب مرة أخرى، هو الغُمامة التي أحكمت إسرائيل وضعها على عيوننا.. وبصائرنا فلم تعد نرى إلا ما يُريده المتلاعبون بالعقول في أوروبا وأمريكا.. وإسرائيل.

مشاهد سوريالية من السياسة العربية!

ظللنا طوال السنوات الماضية نحمل (الخارج) مسؤولية تردي أوضاعنا (في الداخل)، ونعدد الأسباب التي تجعله يقف في طريق تقدمنا منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى اليوم، ودبج كتابنا ومفكرونا آلاف الصفحات في وصف مؤامرات الغرب، التي تدأب علي تفريقنا وبذر (بذور) الشقاق بيننا، وإحكام قبضة الثالوث القاهر: الفقر والجهل والمرض علي أعناق شعوبنا.

كل هذه الأدبيات نعرفها، ونفهمها ونقوم بتوريثها إلي أجيالنا المتعاقبة، حتى بات راسخا في الأذهان أننا (ضحية الغرب) الذي لا هم له سوي احتلالنا: احتلال العقل والأرض! ولست هنا ـ في موقف الدفاع عن الحملات الاستعمارية التي استهدفت بلادنا (وبلادا أخري) وإن كنت لا أنكر أن مناقشة هذه الحجة (الموروثة) باتت ضرورية وعاجلة.. فتخلفنا بيدنا قبل أن يكون بيد غيرنا..

ومن يك في شك مما أقول فلينظر معي إلي هذه المساحات من اللامعقول في حياتنا السياسية العربية. هانحن قد قطعنا من أعمار أبنائنا وأجدادنا (وأعمارنا بالتبعية) عشرات السنين نكافح من أجل القضية الفلسطينية واعتبرناها- ومازلنا- قضية العرب أجمعين، بل (أم القضايا).. وطالبنا ولا نزال نطالب بحق الشعب الفلسطيني (الشقيق) في أن تكون له

دولته الحرة المستقلة ذات السيادة..

ودفعنا من أموالنا، وقوت أولادنا، وبذلنا دماء الشهداء منا من أجل الوصول إلي هذه الغاية... وعندما انقلبت القضية الفلسطينية من نضال إلي دولة ومؤسسات ووزارات ورواتب بالدولار واليورو، انقلب الفلسطينيون علي أنفسهم.. وأخذوا يتراشقون بالاتهامات والرصاص.. يريد كل طرف أن ينعم بكرسي الوزارة، ويلهث وراء المناصب.. وتلاشت تماما كل مظاهر المقاومة الوطنية والكفاح الموجه إلي (العدو) الإسرائيلي.. إلا أننا وجدنا أنفسنا أمام شعب فلسطيني آخر غير هذا الذي كنا نعرفه ونضع أيدينا في يديه.. وقد يكون الصحيح- للإنصاف- أن نقول إننا وجدنا أنفسنا أمام زعماء فلسطينيين اختفت من قواميس حياتهم كلمات النضال، لتحل محلها الغنائم والامتيازات..!!

أقول ذلك وفي فمي مرارة، إذ لا يعقل أن يظل الحديث متواصلا عن تشكيل حكومة وحدة وطنية لأشهر قد تمتد إلي سنوات، والمواطن الفلسطيني يعاني القهر والذل والجوع، بينما قادته- قادة النضال سابقا- يتنافسون في الاستئثار باقتسام المواقع والمناصب والدولارات! ووسط هذا المشهد السوريالي يسيل الدم الفلسطيني برصاص فلسطيني دون أن يهتز جفن لـ أبو نضال، وأبو كفاح، وأبو مازن، وأبو اللطف.. وهلم جرا!!

إذا انتقلنا إلي المشهد العراقي، وجدناه أكثر (لا معقولية) و (غموضا) فقادة العراق يهرولون باتجاه البيت الأبيض ولعابهم في حالة (سيلان) لا يتوقف، وأمام الوعود الأمريكية السخية، يخرجون علي العالم (مطالبين ومتوسلين) السادة الأمريكان بالبقاء في العراق (احتلالا وإدارة)..

.. وعلي الطرف الآخر، ينصح تقرير بيكر- هاملتون، الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش بالخروج من العراق في أقرب وقت، لأن الاحتلال الأمريكي لبلاد الرافدين هو أحد أسباب زعزعة الاستقرار في منطقة الشرق الأوسط..

.. المفارقة واضحة، فأهل الحل والعقد في العراق الشقيق يكون بين أيدي

الرئيس بوش ورفاقه في واشنطن، راجين استمرار حالة الاحتلال.. بينما السياسي الأمريكي المحنك جيمس بيكر يعلن بأعلى صوت: الخروج اليوم وليس غدا..

.. مفارقة أضحكتني لأنها ذكرتني بأحدي ولايات جمهورية جزر القمر الإسلامية، التي طالبت في برلمانها بعودة الاستعمار الفرنسي لبلادهم بعدما تعذر الاتفاق بين فرقاء الوطن الواحد!!

نعم حدث هذا في جزر القمر قبل سنوات، وها هو يحدث اليوم في أرض الرافدين.. يا للعجب!

ثم إذا اقتربنا أكثر من الشعب العراقي، الذي يحصد رصاص الأمريكان منه (يوميا) نحو ٥٥٠ شخصا، لاكتشفنا أن الطائفية تسيطر علي الأحداث السياسية وأصبحت المساجد والزوايا منطلقا للقتل والذبح وليس للصلاة والعبادة.. إلي حد أن كوفي أنان الأمين العام السابق للأمم المتحدة، اعترف رسميا بأن ما يجري في العراق هو أفظع من حرب أهلية تسحق تروسها عظام المدنيين من المواطنين العاديين..

بهذه الصورة نكتشف فعلا أننا أمام سوريالية عراقية لا مبرر لها سوي أن قادة العراق الذين ملؤوا رءوس الناس بأحاديث متواصلة عن الحرية والاستقلال والكفاح قد أصابهم (حالة مسخ)، فأصبحوا مشرعين للاحتلال، ومبررين لوجود الآليات العسكرية الأجنبية في البلاد، ومرحبين بزيادة القوات الأمريكية ٢١ ألفا إضافية!

.. صحيح أن المعادلة صعبة، وهي أن خروج قوات الاحتلال سوف تؤدي إلي فوضي (في غياب الأمن) كما أن البقاء سيكون سببا مباشرا في استمرار المقاومة.. لكن صعوبة المعادلة لا تبرر- تحت أي ظرف- هذا الانقلاب الذي حدث في مواقف قادة العراق الشقيق!.

وفي لبنان، وأمام مشهد الاعتصام الصامد في ساحات بيروت الجريحة، كان لابد أن نتأمل الوقائع لنجد أنفسنا (مرة ثالثة) وجها لوجه مع سوريالية مضحكة، فالكل يدعي أنه يريد الخير للبنان وشعبه، بينما الوقائع تقول غير ذلك، ولقد

ذكرني هذا المشهد ببيت من الشعر يقول:

كل يدعي وصلا بليلي وليلي لا تقر لهم بذاكا!

فجماعة ١٤ آذار التي تتحدث باسم الأغلبية تتمسك بمقاعدها لتنعم بامتيازات المنصب وتتذرع بأنها دستورية وشرعية (وهناك من يبرر ذلك!)، وجماعة٨ آذار تتحدث باسم المعارضة وتطالب بإسقاط الحكومة، وتشكيل حكومة جديدة تكون ترجمة حقيقية لوفاق وطني..

ومما يزيد الطين بلة، أن الجماعة الأولي تساندها قوي دولية كبري علي رأسها فرنسا وأمريكا، بينما الجماعة الثانية تقف وراءها دولتان هما إيران وسوريا.. وبين هذين الاستقطابين الكبيرين هناك مساندات إقليمية من هنا وهناك..

ومن عجب أنه في مواجهة هذا المأزق الذي يعيد إلي الأذهان جراح الحروب الأهلية التي عاشتها لبنان في السنوات العشرين الماضية، علينا- نحن في مصر والعالم العربي- أن نصدق أن زعماء (بلاد الأرز) يريدون الخير لبلادهم، وأن ما يحدث حاليا من تجاذبات واعتصامات وتحرشات (تنذر بوقوع حالات قتل واغتيالات) هو أسمي معاني الديمقراطية!!

.. مهزلة أخري يدفع ثمنها شعب لبنان والسبب ليس الغرب الاستعماري- آسف- وإنما نفر من قادة وزعماء هذه الدولة الذين باركوا كل شيء من أجل حفنة من دولارات أمريكية ويوروات أوروبية. واستوي في ذلك من ينادي بالإعمار، والتقدم، والليبرالية، بمن ينادي بالمحاصة وتكريس الطائفية والاستقواء بالخارج..

أخيرا: لست أبريء الاستعمار الذي لا يريد لشعوبنا نهضة، لكن المتهم الأول هم أولئك الذين اعتلوا مقاعد القيادة بين شعوبهم في فلسطين والعراق ولبنان، والذين انقلبوا من زعماء نضال، وكفاح ليصبحوا مجرد جباة ضرائب ليضمنوا لأنفسهم ولذويهم وأزلامهم العيش في بحبوحة، دون اكتراث بعدد الضحايا الذين يسقط أكثرهم بنيران (شقيقة) وليس بنيران (صديقة!!)

الفهرس